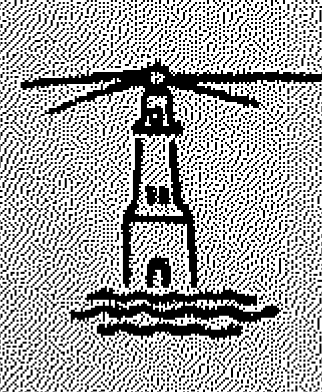
اقرأ

سامى الكيالى

النفس الإنسانية

فى أدب الجاحظ



دار المعارف بمصر

النفس الإنسانية

في أدب الجاحظ

سامى الكيالى

النفس الإنسانية
فى أدب الجاحظ

اقرأ ٢٢٦

دار المعارف بمصر

اقرا ٢٢٦ – ١ كتوبر ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

تمهيد

حفل تاريخنا الأدبى بصفوة من أعلام الفكر فى الأدب والحكمة والفلسفة والتشريع استطاعوا ، بما تركوه لنا من تراث عقلى ، أن يحتلّوا أرفع قمة من تاريخ الفكر العالمى ، وألا يقل إنتاجهم قيمة عما تركه العباقرة من أعلام الفكر عند سائر الأمم الحية .

وليس فى قولنا هذا أى غلوّ ، ولن تتملكنا عصبية الجنس حين نقول إنهم بزّوهم فى الكثير من ميادين المعرفة ، نقولها إقراراً للحقيقة وواقع التاريخ ، وشاهدنا على ذلك بحوث المفكرين الأجانب ودراسات المستشرقين المنزّهين عن الهوى والذين كلما أوغلوا فى بحوثهم عن مفكرى العرب الأفذاذ انكشفت لهم الأضواء الباهرة مما يجعلهم جدّ دهشين .

وإن أعجب بشىء فعجبى من أولئك الهدامين الذين يدعون لهدم كل صلة لنا بميراثنا القديم . وهى لوثة الشعر بين الحاقدين الذين يزينون لشبابنا الطرى العود بأساليب مغرية . هذا الاتجاه المعوجّ السقيم الذى يرمى إلى التشكيك بجلال ماضينا والكفر بخصائصنا وإذابة شخصيتنا العربية التى عاشت طوال القرون فى حفاظها على أصالتها المتميّزة رغم الغوائل التى غالتها والأهوال والنكبات التى عصفت بها .

وقد فات أولئك الهدامين أن محاولاتهم عبر القرون قد فشلت واستطاعت « العربية » فى تاريخها الطويل أن تقاوم الهزات وتصارع النكبات . وليس هذا فقط بل استطاعت ، بحيوية عجيبة ، أن تصمد للأعاصير وأن تثبت للأحداث قوية الإيمان . وأن تصهر فى بوتقتها الكثير من الأمم ذوات الحضارات المتباينة وأن تجعل منها « عربية » العادات واللغة ، بل عربية الأصول والفروع والأنسام رغم كل ما حاوله الهدامون من الغزاة والشعوبيين . . وما يحاوله فى عصرنا هذا الشعوبيون والمستعمرون ! .

فنحن حين نرجع إلى ما تركه « العقل العربى » من تراث ذهنى أصيل نقف مزهوين ومعجبين ، ويقف غيرنا ، ولا سيما المنصفون من شتى الأمم — يقفون مبهورين ، دهشين ، بل حائرين من حيوية هذا العقل الذى استطاع فى فترات متفاوتة الزمن ، أن يخلق ويبدع فى شتى ميادين الحياة والفكر ، وأن تظل آثار عبقريته حية جديدة ذات ألوان وتزاويق لا تمحوها الأيام مهما تقادم عليها الزمن .

* * *

من أولئك الأعلام الذين تركوا للفكر العربى آثاراً حية فى الأدب وفى تصوير منازع النفس ورسم خلجات الحياة ، إلى تصويره ثقافة عصره أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — هذا

الأديب العظيم الذى عاش طوال عمره فى خضمّ الأحداث فما ترك ظاهرة من ظواهر الحياة والمجتمع إلا رسمها وصوّر دقائقها ونفذ إلى أعماقها بأسلوب تميّز بالدقة والقوة وبالسهولة والوضوح .

ولا علينا قبل أن نغوص فى طائفة من صور أدبه التى تصوّر ألواناً من النفس الإنسانية أن نقف وقفات عابرة عند ظواهر حياته نستشف من سطورها أطوار هذه الحياة — أريد طفولته ونشأته وأساتذته وكتبه لنرى أى إنسان عبقرى هذا الأديب الذى نستطيع أن نفاخر به أدباء العالم دون حرج . . .

* * *

متى ولد الجاحظ ؟

لا يهمنا أن نعرف اليوم الذى ولد فيه وإن اتفق الرواة على أن قبيلة بنى كنانة استقبلت طفلها كالكثيرين من أطفال البصرة الفقراء الذين يولدون وينشأون دون زفة ولا ضجيج . .

ولدته أمه سنة ستين ومائة للهجرة ، وفى رواية سنة ثلاثة وستين ومائة فما كاد يحبو حتى توفى والده فنشأ فى غمار اليتم .

وكانت البصرة لعهده بيئة من بيئات العلم والأدب والمعرفة .

ولم تشأ القبيلة أن تتركه لهوج الإهمال بعد أن رأت عنده ملامح من الذكاء العجيب فبعثت به إلى كتاتيب البصرة يتعلم القراءة والخط ويحفظ سور القرآن . . فما كاد يأخذ حظه منها فى فترات جدّ قصيرة دلت علي ألمعيته حتي بعث به كبير

القبيلة إلى المربد ، والمربد فى البصره كسوق عكاظ[1] فى الحجاز يتبارى على صعيدها الشعراء ويعلو منبرها الخطباء .

فما كاد يشبّ بعد أن تلقى اللغة شفاهاً عن آله وذويه ومن إليهم ممن اتخذوا الفصحى أداتهم فى المخاطبة والحديث — ما كاد يشبّ ويتذوّق حلاوة الأدب بعد أن حفظ الكثير الكثير من أشعار العرب حتى أخذ يتتلمذ على أعلام البصرة ، يستمع إلى دروسهم . ويلازمهم فى جلساتهم الخاصّة وحلقاتهم العامة ، يتحدث إليهم ويناقشهم فيما غمض عليه من فهم النصوص فيفيد الكثير من هذه المناقشات ويدوّن فى دفتره ما علق بذهنه من شوارد اللغة وأصول الأدب .

وكان أكثر أساتذته الأعلام الذين أحبهم ولازمهم لزوم الظل إلى الأصل : الأصمعى وأبا زيد الأنصارى وأبا عبيدة معمر بن المثنى والأخفش والنظام وإبراهيم بن سيّار البلخى وصالح بن جناح النخمى وغيرهم وغيرهم من الأعلام ،

---

(١) عكاظ نخل بقرب الطائف كانت قبائل العرب تقصدها لأنها فى طريقها إلى الحج فيجتمعون فى مكان يقال له الابتداء فتعمر أسواقهم بالناس . وينتهز الشعراء هذه الفرصة فيعرضون ما قالوه من نخب قصائدهم على نقدة القريض هناك ، ويكون لذلك احتفال حافل يشهده الجماهير فتشيع قصائدهم شيوعاً تاماً ويترنم بها الركبان فى كل صقع وذلك غاية ما يتمناه شاعر لشعره . وقد كان لهذه السوق العظيمة وغيرها من أسواق العرب تأثير كبير فى تهذيب اللغة العربية .

وما زال يلازمهم ويأخذ عنهم طرائف العلم وأصول الأدب حتى كاد يدانيهم ، ولا نجانف الحقيقة حين نقول إنه استطاع وما زال فى طراوة العمر ، أن يبزّ بعض أساتذته .

ولم يعرف الزهو . بعد أن بلغ مرتبة الفهم والإدراك ، بل اعتبر نفسه ما زال فى عهد التلمذة ، يقرأ بنهم ، يبحث ويناقش بهدوء . وقد يعود عن خطله إذا استبانت الحقيقة له — صفة العالم الذى ينشد الحقيقة مجردة من كل لبس ، بل كلما تفتّحت أمامه آفاق المعرفة شعر بضآلة ملكاته الفكرية وأنه ما زال « طالب علم » يخبّ مجدًّا فى هذه الدروب الطويلة .

وإذ نشأ فى بيئة اختلطت فيها النزعات الفارسية بالأصول العربية رأى ألا تفوته معرفة اللغة الفارسية . وتدلّ رسائله وبعض كتبه على أنه لم يكن يجهل مبادئ هذه اللغة التى روى الكثير من أدب أدبائها ، وقد استكمل ثقافته الإنسانية بقراءة ما ترجمه أساطين الفكر عن الهند والفرس والإغريق فقرأها وتمثل الكثير من نصوصها . وخرج منها بمحصول وفير يوائم ثقافته العربية الأصيلة .

وسار أديبنا الشاب الدؤوب المجدّ فى هذا الدرب الطويل من دروب المعرفة . وما زال إلى أن ملك أعنة القلم فبدأ يدلى بدلوه ، يكتب ويمزّق . ثم أخذ يخوض معضلات الفكر والعقائد التى تواجه عصره بجرأة وجنان قوى .

وكانت الحياة العقلية لزمنه قد بلغت احتدام فورانها . . من مذاهب تتصارع وآراء تتصادم ، إلى نزعات وتيارات تلتقى وتفترق . إلى عصبيات جنسية . إلى فِرَق دينية ، إلى شعوبية حاقدة تضرم النيران وتزعزع العقائد وتنفث السموم والدسائس للقضاء على الكيان العربى والخصائص العربية ، إلى أدوات هدّامة مدمرة تحاول تقويض الصرح العربى الممرّد الذى تعب الأولون فى وضع أسسه وبناء دعائمه .

وكان لابدّ لأديبنا الفذ من خوض هذه المعارك .

هدته سليقته العربية ألا ينحرف عن العروبة الأصيلة ولا سيما وقد رأى فى أصولها النقاء والصفاء ، الحب والتسامح ، الرأفة والإحسان ، الكرامة والمروءة ، البذل والعطاء ، الإيثار والتضحية ، الشمم والإباء . وكل مظاهر الحياة الإنسانية التى بذر بذورها الأولون .

فالعرب هم فى الذروة بين الأمم ، لا تدانيهم فى خصائصهم الكريمة ، وشمائلهم النبيلة أمة من الأمم . .

يقول : « لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير ، كما أنه ليس فى العرب لقريش نظير ، وكما أنه ليس فى العرب للناس نظير . . . »

وفى معرض الرد على خصومه يدعم حججه بما تركه العرب من أقوال حكيمة وآراء سديدة فيها فصل الخطاب . إنه يتمثّل

دائماً بأدابهم وحكمتهم وخلاصة تجاربهم فيجد فى أصالتها ورواثها وحقائقها ما يدحض أباطيل خصومه وترّهاتهم . .

ومن أقواله فى هذا الصدد : « وأنا أقول فى هذا قولاً أرجو أن يكون مرضيا . . ولم أقل : أرجو ، لأنى أعلم فيه خللاً . . ولكننى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى ، وملتى ، ولغتى ، وجزيرتى ، وجيرتى . . وهم العرب » .

فالعرب هم الأصل وسائر الأمم هنّ الفرع .

هذا ، وبعد أن عبّ من ثقافات الهند وفارس والإغريق هدته سليقته أن يقول :

« إن العرب أنطق ، وإن لغتها أوسع ، وإن لفظها أدلّ ، وإن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والأمثال التى ضربت أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاصّ فيها » .

ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذا الرأى الذى تعود مناقشته لمن يملك أعنة اللغات الأربع ، ولكننا أردنا أن نستخرج من هذه الجملة حبّه العميق للغته — لأهل دعوته وملّته وجزيرته وجيرته وهم العرب .

كان يتعصّب لقومه كلما رأى خصوم العرب يشنّعون على قومه . وإذا أحسّ بخطر الشعوبيين على الروح العربية الأصيلة نقدهم أقسى نقد . وهاجمهم أعنف هجوم فى

الكثير من كتبه ورسائله :

فمن وصفه لهم : « واعلم أنك لم تر قوماً قطّ أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشدّ استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ولا أقلّ غُنْماً من أهل هذه النِّحلة ، وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقّد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليانُ تلك المراجل الفائرة ، وتسعّر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كل أمة ، وزىّ كل لغة وعللهم واختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما علة كل شىء من ذلك ، ولِمَ اختلقوه ، ولِمَ تكلفوه ، لأراحوا أنفسهم ، وَلخَفّت مؤنتهم على من خالطهم[1] » .

* * *

كانت اللوثات العقائدية والتيارات العنصرية بدأت تزرع بذورها المختلفة الألوان فى الأرض العربية البكر . . وكثيراً ما حاد الكثيرون عن الاتجاه القويم . . ولكن أبا عمرو ، وقد غلّب عقله على هواه ، لم ينحرف مع المنحرفين ، ولا ضلّ مع الضالين المضلين ، فقد ظلّ محتفظاً بسليقته العربية ، بل ظلّ طوال عمره المديد هذا « الإنسان العربى » الذى يدافع عن كرامة الإنسان بشتّى ميوله ومظاهره .

كان ينقد ويجرّح ، ويهزأ ويعبث ، يلمز ويغمز . .

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢ .

وكان يهدف من وراء هزئه وعبثه ، نقده وتجريحه ، إلى تصوير الإنسان على حقيقته . . وربما خطر له من وراء هذا النقد أن يهدى الإنسان إلى السبيل الأقوم ، أن يقوّم اعوجاجه ، أن تبرأ النفس البشرية من العيوب . .

ولكن وقد عرف البشر على حقيقته كأنى به يقول هيهات هيهات . . فى جبلّة الإنسان هذه الجراثيم التى تأبى إلا أن تنفث سمومها . . فقد أخفقت رسالة الأنبياء والحكماء فى إصلاح جبلّة هذا الآدمى فذهبت أقوالهم الحكيمة ونصائحهم السديدة أدراج الرياح .

ولم يخف ذلك على الجاحظ فكان يصف هذه المنتويات التى تتألف منها طبيعة الإنسان وصف العالم النفسانى الحاذق .

وسنعود إلى الكلام عن رأيه فى سجايا الإنسان وطباع البشر بعد أن نمرّ مروراً سريعاً بملامح من مراحل حياته . . .

فمذ برزت مواهبه وشعّت أضواء عبقريته كثر حاسدوه وكثر مبغضوه وأخذوا يتقوّلون عليه شتّى الأقاويل ويجرّدونه من كل مكرمة وفضيلة .

وهذه المثالب هى سلاح الأغبياء الموتورين والحاسدين الثرثارين الذين حرمهم الله من الذكاء والفطنة والعلم ، وما كان هذا التهديم الذى حاولوه ليطفئ سنا عبقريته فازدراهم وهزأ بهم ولزم داره ودور الوراقين يزيد من نطاق معرفته .

اعتزل الناس فترة دون أن يجهل طباع الناس .

كانوا مادة أدبه فى تصوير طباعهم وخلقهم ونزواتهم ومباذلهم وألاعيبهم وأهوائهم وشهواتهم وكل ما تنطوى عليه نفوسهم من خير أو شر . من حب أو بغض . .

رأى الدنيا أمامه منطوية فى صفحات الكتاب .

وما قرأت لأديب أعطى الكتاب حقه من التجلة والوصف كما فعل الجاحظ .

فالكتاب عنده : « نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ونعم النزهة ، ونعم المستغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل . ونعم الوزير والنزيل . .

« الكتاب وعاء ملئ علماً . وظرف حشى ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً ، إن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مثله ، و بناسك فاتك ، وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب أعرابى ورومى وهندى وفارسى ويونانى ، ونديم مولد، وحبيب ممتع ، ومن لك بشىء يجمع بين الأول والآخر ، والناقص والوافر والباطن والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه . والجنس وضده » .

ولو ذهبت أروى ما كتبه الجاحظ عن الكتاب وأثره فى تكوين العقول وخلق الحضارات لأمليت بضع صفحات . .

يروى عن أبى هفان أنه قال : لم أرقط ، ولا سمعت مَن أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتّى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وروى الخطيب البغدادى عن محمد بن سليمان الجوهرى قال :

كنا نصطحب الجاحظ على سائر أحواله من جدّ وهزل ، وقد خرجنا يوماً للنزهة ، فبينا نحن على جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، إذ امرأة عارضت معها أوراق مقطعة ، فعرضتْ ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً . وأخذ الأوراق وقال : انتظرونى . . ومضى إلى منزله ، فلما عاد أخذنا نهزأ به ويقول : فزت بقطعة من العلم وافرة . . وضحكنا . . فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها . . ولكنكم جهّال ، لا تعرفون النفيس من الخسيس » .

* * *

كانت الكتب سلوته فى الحياة . وكانت طباع الناس وأخلاقهم المتباينة ملهاته وموضع دراساته . . وما كان ليفرّق

أحياناً بين جبلّة الإنسان وغريزة الحيوان وله فى ذلك آراء سنعرض إليها .

* * *

بعد أن قرأ الجاحظ كثيراً . واتسعت آفاق ثقافته ، ووعى علوم العربية بشتى فروعها ومختلف ألوانها ، وبعد أن أحاط إحاطة شاملة بما ترجم عن الهندية والفارسية والإغريقية — رأى أن المؤلفين الذين سبقوه إلى التدوين والتأليف ليسوا أكثر منه فهماً ، ولا أبصر منه ذوقاً ، ولا أقدر وأعمق منه على تناول قضايا الفكر والأدب بالبحث والدرس .

وأخذ يؤلّف الرسالة تلو الرسالة ، والكتاب تلو الكتاب ، فما فرغ من تأليف كتاب « العباسية » الذى أهداه للمأمون حتى اختاره لتولى ديوان الرسائل فى بغداد ، وهو منصب خطير لا يتولاه إلا الأعلام من أئمة الأدب . . فحزّ هذا الاختيار فى نفوس الكثيرين من الأدباء المرموقين ، وأخذت دسائسهم تنصبّ عليه ، فلم يتركوا قذيفة من قذائف المثالب إلا رموه بها . ومع ازدرائه بمثالبهم وعدم اهتمامه بتخرصاتهم شعر أنه انتقل من جوّ منطلق إلى جوّ موبوء — جوّ الحسد والتنافس واختلاق الأكاذيب ، ولا سيما حين شعر رجال الديوان أن أسلوبه البليغ وبيانه المشرق طغى على أساليبهم المتعاظلة وبيانهم الهزيل المتقعّر .

وأدرك سهل بن هارون ، وزير المأمون ، مدى قوة شخصية الجاحظ وثقافته العميقة والهوة التى تفصل بين أسلوبه وأسلوبهم ، وبيانه وبيانهم فقال كلمته التى هزّت أفئدة الديوانيين :

« إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتّاب » !

ولم يثبت الجاحظ فى هذا الجوّ الملىء بالدسائس — ضاق بالجوّ الحكومى الرتيب الموبوء فاعتزل حياة الديوان . وآثر حياة الانطلاق فى الآفاق الكفرية الواسعة الرحاب . .

وسرّ « الديوانيون » الدخلاء وأكثرهم من الإمعيين لتخلى الجاحظ عن هذا المنصب الخطير . . .

آثر حياة الفكر . . وآثر التفرغ للدرس والبحث ، وقد خشى ، بعد أن امتلأ صدره بالكثير من الهواجس — خشى أن تلتهم حياة الديوان هذه الهواجس بل أن تلتهم آراءه التى حرص أن تنطلق حرّة لا تتأثر بأى مؤثر . .

آثر الحياة الحرة على قيود الوظيفة .

وكثيراً ما كان يطلب إليه معالجة موضوع من هذه الموضوعات الفكرية التى يواجهها مجتمعه فلا يتردد . . وسرعان ما يجرى قلمه بكتابة رسالة أو تأليف كتاب . .

وكما أخذنا الآن بمبدأ تخصيص « منح تفرغ » للممتازين من الأدباء والفنانين ورجال الفكر والثقافة لينصرفوا للإنتاج

بعيداً عن العوائق المادية والاجتماعية التى تعترضهم وتحدّ من إنتاجهم[١] . فقد كانت هذه السنة جارية عند أسلافنا بغير الأسلوب المتّبع فى عصرنا هذا . فقد أقطعه ابن الزيات فى عهد المعتصم أربعمائة جريب[٢] لقاء تفرغه لكتابة كتاب فى موضوع فرضه عليه . وكتب إليه يقول :

« وتنتهى مشاهرتك ، وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة . . »

نعم ، آثر الجاحظ الحياة الحرة المنطلقة على قيود الوظيفة وجوّها الموبوء . . وقد فرض على نفسه أن يتفرغ لعالم الفكر بآفاقه الواسعة فلا يكاد يفرغ من تأليف كتاب حدد له موضوعه أو ألفه بوحى من فيض موهبته حتّى يجد المكافأة الضخمة تنتظره وتنسيه مضض بؤسه وسواد فقره .

فحين فرغ من تأليف كتاب « البيان والتبيين » أهداه إلى قاضى القضاة أحمد بن أبى دواد فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وحين فرغ من تأليف كتاب « الزرع والنخل » أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار ،

---

(١) صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى قرار وزارى تحت رقم ١٦٢ بتاريخ ١٨/٨/١٩٥٩ لتنظيم منح التفرغ ومكافأة الأدباء والفنانين . وهو مستمد من القرار الذى أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد فى الإقليم الجنوبى .

(٢) الجريب : وحدة مساحية من الأرض تساوى ٢٤٠٠ متر مربع .

وقبل تأليف هذين الكتابين كان قد فرغ من تأليف كتاب « الحيوان » فأهداه إلى محمد بن عبد الملك فأعطاه خمسة آلاف دينار .

وإذا تجلت مواهبه الفذّة جعل التأليف صناعته ، فما من باب إلا وبلجه باطمئنان وجلى فيه ، وقد كثرت كتبه ورسائله حتى بلغت ، على حد بعض الرواة ، ثلاثمائة وخمسين مصنفاً لم تصلنا منها غير « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » و « المحاسن والأضداد » و « رسائل المعاد والمعاش » و « التبصر بالتجارة » و « كتمان السرّ وحفظ اللسان » و « الجدّ والهزل » و « الحسد والعداوة » و « ذم القواد » و « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » و « الربيع والخريف » و « الحنين إلى الأوطان » و « صناعة الكلام » و « الأصنام » و « كتاب المعلمين » و « الجوارى » و « النساء والبلدان » و « جمهرة الملوك » و « كتـــاب المغنيين » و « الاستبداد والمشاورة فى الحرب » عدا كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد وهى « سحر البيان » و « تنبيه الملوك » و « العرافة والفراشة » و « النبى والمتنبى » و « مسائل القرآن » و « العبر والاعتبار فى النظر فى معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع » وغير ذلك من الكتب والرسائل . .

ولا مجال لكى نعطى إلمامة عن خصائص كل كتاب

فحسبنا هذه الإشارة لندلّ على مدى ثقافته التى تدلنا على أنه كان موسوعة كبرى ، فما من مسألة من المسائل التى تشغل أدباء عصره ومفكريه إلا تناولها بالبحث والدرس وقال رأيه بأسلوبه الواضح الذى تترقرق بين كلماته أحياناً روحه الهازئة الساخرة إذا أراد العبث بفكرة لم يهضمها ، فكان ، بدون ريب ، شيخ أدباء عصره ، أو كما وصفه ثابت بن قرة بأنه « مدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سَحْبان فى البلاغة ، وإن ناظر صارع النّظّام فى الجدال ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب . وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم[1] » .

وإذ بلغ هذه المكانة بين معاصريه كثر حاسدوه كما أشرنا ، وكثر خصومه حتى اضطر أخيراً أن يكتب الكتاب وينحله اسم غيره من بلغاء الكتاب القدامى .

روى المسعودى فى التنبيه والإشراف القصة التالية عن الجاحظ نفسه :

« إنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمّم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقلّ فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، أو غيرهما

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٩٧ .

مَن المتقدمين . ومن قد صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخل هذا العصرفى حسد من هو فى عصرهم ، ومنافسته على المناقب التى يخص بها ويعنى بتشييدها » .

غريزة الحسد هذه عند معاصريه والتى أثارته وأرمضته تناولها بأحاديثه ورسائله فوصفها وصفاً بليغاً . وكتب فيها الكثير من الجمل والعبارات التى تدل على تفهمه جبلة الإنسان تفهماً صحيحاً .

وكان لابد من أن يحتدم الصراع بينه وبين خصومه الذين ضاقوا بأدبه ونزعاته فأطلقوا ألسنتهم بحقه يهدمون ويدسون عليه لدى السلطان ويثيرون العامة عليه ولاسيا فيما يتعلق بشعوره الدينى فى فترة كانت الزندقة خلالها قد انتشرت على نطاق واسع فاعتبروا آراءه الحرة هرطقة ودعوته إلى معالجة الشئون التى تمس العقيدة كفراً وزندقة وما كان الجاحظ من الزنادقة بل كان حر الفكر يبسط آراءه بتفكير منطلق وروح سمحة تستهدف سلطان العقل للوصول إلى لب النصوص التى تفسر جوهر الدين .

ولسنا هنا بصدد بحث هذه الناحية التى اختلف معاصروه فى أمر عقيدته : فمنهم مَن اعتبره من أصميم الزنادقة ، ومنهم

منْ برّأه من هذه التهمة التى كثيراً ما ألصقت بكل منْ تفلسف وفكر .

كان ابن أبى داؤد يقول فيه :

« أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه »

واتهمه أبو منصور البغدادى صاحب كتاب « الفرْق بين الفرَق » بالجهل وجرّده من الروح الإنسانية فقال :

« ولو عرفوا جهالاته فى ضلالاته لاستغفروا الله من تسميتهم إياه إنساناً ، فضلاً عن أن ينسبوا إليه إحساناً » .

ولم يكتف بذلك بل جعله أكثر قبحاً من خنزير ممسوخ . فاستشهد ببيتين لشاعر موتور :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً
ما كان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه
وهو القذى فى كل طرف لاحظ

ووصفه ثعلب بقوله :

« كان كذاباً على الله ، وعلى رسوله ، وعلى الناس . .

* * *

لسنا هنا فى معرض مناقشة أقوال خصومه ودحضها بالكثير من الشواهد التى جاءت فى رسائله وكتبه والتى تصوّر عمق شعوره الدينى وإيمانه المطلق بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر

بل أردنا من هذا الاستطراد أن نشير إلى مدى مبلغ الحقد والصغار من نفوس بعض خصومه الذين كان الحسد يتأكل صدورهم . . وهذا الذى دفعه أن يخص هذه الغريزة الرعناء — غريزة الحسد بالكثير من أقواله يحلل جبلّة الإنسان تحليلاً عميقاً فكتب ، كما قلت ، آيات بيّنات تصور هذه الظاهرة أبلغ تصوير .

يقول : « الحسد ، أبقاك الله ، داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسِر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، منه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقوياء ، ومحدث التفرقة بين القرناء ، وملقّح الشر بين الخلطاء ، يكمن فى الصدور كمون النار فى الحجر . .

ويتساءل : لمَ صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء . . . ولمَ كثر فى الأقرباء وقلّ فى البعداء . . وكيف دبّ فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين ، وكيف خصّ به الجيران من جميع الأوطان ؟

ويجرى قلمه فى تصوير نفسية الحاسد تصويراً لا ينأى قط عن تلك اللمحات التى يرسلها أساطين علماء النفس حين يرسمون الخلجات التى تنبض بها قلوب الموتورين الذين يتأكلهم الحسد .

ويقول : « ما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغيّر لونه ، وتخوّص عينه . وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك . .

ويتساءل وهو يصف نفسية الحاسد فى شتى مظاهرها بقوله :

« متى رأيت حاسداً يصوّب لك رأياً وإن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبة عنك ، أو قصّر من عيبه لك ؟

« فهو الكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القطم[١] ، والسيل العرم ، إن ملك قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك عدوه . أحسن ما تكون عنده حالاً ، أقل ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ،وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً . فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الأموات ، ومخالطة الزّمنى ، والاكتناف بالجدران ، ومصّ المصران ، وأكل

(١) القطم : الكثير العض .

القردان ، أهون من معاشرة مثله والاتصال بحبله .

« وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ، ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته . . » .

وبعد أن يسترسل فى وصفه البليغ وتحليله الدقيق لنفسية الحاسد يحدّد لنا لون العقوبة التى يجب أن تفرض على الحسّاد فيقول :

« لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً . .

هذه هى العقوبة التى فرضها على الحساد . . أى أن يعيشوا حياتهم فى ضرام هذا الداء ، تتأكل نيرانه المشتعلة حنايا صدورهم . وتمرّ أيامهم فى كمد وغمّ وحزن واصفرار وجوههم ، هذه الوجوه التى يزداد هزالها واصفرارها كلما تألق نجم الذين يرمونهم بالحسد . . أى كلما علا مقامهم وبعد صيتهم وشع فيض أدبهم وعلمهم . .

وكان الجاحظ فى عصره وبين حاسديه هذا الموهوب الذى علا مقامه وبعد صيته وشعّ فيض أدبه وعلمه فطوى الكثيرين وخلد أدبه على الزمن .

ومن يدري ؟ فقد تكون هذه الظاهرة الرعناء التى دهمته

فى حياته ، هى التى حفزته أن يدرس أحوال الناس وتتبع أطوارهم ويلاحظ أخلاقهم وطباعهم . . . ونقرأ فى كتبه الكثير من هذه التأملات الفلسفية التى صور فيها الإنسان بشتى نوازعه — هذا الإنسان الذى شغلت جبلته وسجاياه الفلاسفة والمفكرين من عهد أفلاطون وأرسطو إله عهد المتنبى والمعرى ، إلى شوبنهور ونيتشه ، إلى ڤولتير وروسو . . وإلى عشرات المفكرين من المعاصرين ، المتشائمين منهم والمتفائلين . نعم ، وكما شغل المفكرون والفلاسفة بجبلة الإنسان وسجاياه فقد شغل بها الجاحظ فلم يترك ظاهرة من ظواهر حياة الإنسان إلا تناولها بالوصف الدقيق الذى يصور ملامحه وطبائعه وخوالجه بأسلوب ترقرق « الواقعية » من خلال سطوره وقد مزجت بروح من الدعابة والسخرية .

إلا أن الجاحظ لم يكن كبعض الفلاسفة المتشائمين الذين جردوا الإنسان من خصائصه الأصيلة — أريد من « إنسانيته » بل كان ، إلى كشفه عوراته يسترها بوريقات زاهرة ذات أريج عبق من أسلوبه الرائع الذى يجعلك ترى بالعين المجردة رذائله وفضائله ، سيئاته وحسناته .

والواقع ، أن الإنسان يجمع فى ذاته المتناقضات . . . وما زال كبار المفكرين ، من عصر الإغريق إلى يومنا هذا ، فى حيرة صارخة من عوامل هذه المتناقضات . . وكلما حاولوا

سبر أغوار نفسه رأوا أنفسهم تائهين فى دروب مظلمة ، ودياميس عفنة تضيع فى مجاهلها أقدر العقول . .

وحين وضع العلامة الشهير الكسيس كارل مجهره الدقيق على عيوننا فى كتابه « الإنسان . . ذلك المجهول » أرانا العجب . .

« فالإنسان ، كما يعرفه الأخصائى ، بعيد عن أن يكون بذاته الإنسان الحقيقى ، إنه ليس أكثر من صورة تتألف من صور أخرى تقيمها الوسائل العلمية الخاصة بكل علم على حدته ، فهو المشرّح تلك الجيفة التى يقطعها إرباً ، وهو الوعى والشعور عند العالم النفسانى والقائلين بالحياة الروحانية ، أو هو الشخصية التى يظهرها الاستبطان لكل إنسان ، قارّة فى صميم ذاته . وهو عند الكيميائى تلك الجواهر الكيميائية التى تؤلف الأنساج وأخلاط البدن ، وهو عند الوظائفى ـ العالم بالوظائف ، تلك العمائر الباهرة من الخلايا والسوائل المغذية التى يعكف على درس قواعدها وأسسها ، وهو عند رجال الصحة والمربين إما تلك الأنساج المركبة وإما تلك القوة الشاعرة الواعية التى يحاول هؤلاء بجملتهم أن يرفعوها إلى السمت الأعلى من التطوّر والنشوء على مرّ الأزمان . وهو عند أهل الاقتصاد ذلك « الإنسان الاقتصادى » الذى ينبغى له أن يستهلك على التوالى وبغير انقطاع تلك المصنوعات التى يؤدى استهلاكها إلى بقاء الآلات التى استعبدته وردّته رقيقاً ، تعمل الليل بعد النهار . .

لم يبق الإنسان فى اعتبارنا ذلك الإنسان البالغ التعقيد الذى تحلله الوسائل العلمية لا غير ، بل هو فوق ذلك الشاعر والبطل ، والقديس . هو تلك الميول والخواطر والآمال التى تسوق الإنسانية .

لقد امتزجت تصوراتنا عن الإنسان بالغيب وما بعد الطبيعة.

لقد قامت هذه الأشياء عامة على أسس يعوزها الضبط والتحديد . حتى لقد أصبح الإغراء فى اختيار أيها يلذّ لنا عظيماً قوياً ، لهذا نرى أن فكرتنا فى الإنسان تختلف بمقتضى مشاعرنا ومعتقداتنا ، فالمادى والروحانى كلاهما يقبل التعريف العلمى الذى يحدّد بلوّرة من كلوريد الصوديوم ويؤمن به . ولكنهما يختلفان إزاء الإنسان . والنفسانى الذى يؤمن بالمبدأ الآلى ، لا ينظر إلى الكائن الحى نفس النظرة التى يراها النفسانى المؤمن بالمبدأ الحيوى « أى الروحانى » . فالكائن الحىّ الذى يراه « چاك لوب » يختلف جهد الاختلاف عن ذاك الذى يراه « هنزدريش » ، ولا شبهة فى أن الإنسان قد بذل جهداً جباراً لكى يعرف ذاته ، وعلى الرغم من أننا نملك كنوز المشاهدة التى استجمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتألهون على مدى الأحقاب والدهور ، فإننا لم نفقه إلا بعض نواحى خاصة من أنفسنا ، ولم ندرك الإنسان فى مجموعه عرفناه شيئاً مكونا من أجزاء مستقلة ، وحتى تلك الأجزاء

قد خلقناها بأساليبنا ، فكلٌّ منا إنما هو بمثابة جمهرة من الخيالات والأشباح ، تستقر فى جوفها حقيقة مجهولة[١] »

ومع ما فى جبلة الإنسان من ملتويات وقف عالم كبير إزاءها حائراً نرى الجاحظ ينفذ إلى أغوار هذه الجبلّة فيصورها بأسلوب يجمع بين إحساس العالم ونزعة الأديب .

يقول : « أو ما علمت أن الإنسان الذى خلقت السمواتُ والأرض وما بينهما من أجله كما قال عزّ وجلّ « سخر لكم ما فى السموات والأرض جميعاً منه » إنما سموه العالمَ الصغير سليلَ العالمَ الكبير . لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما فى العالم الكبير ، ووجدنا له الحواسّ الخمسَ ، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع ، ووجدوا فيه صَولة الجمل ووثوبَ الأسد ، وغدر الذئب ، ورَوغان الثعلب ، وجُبْن الصِّفْرِد[٢]، وجمع الذَّرَّة[٣] ، وصنعة السَّرْفة[٤] ، وجود الدِّيك ، وإلف الكلب ، واهتداء الحمام .

---

(١) المقتطف ج ١ مجلد ٩٢ ص ١١ .

(٢) الصفرد طائر يضرب به المثل فى الجبن .

(٣) الذرة : ضرب من النمل أحمر صغير .

(٤) السرفة : دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناووس ثم تدخل فيه وتموت . ويقال فى المثل : أصنع من سرفة .

وربما وجدوا فيه مما فى البهائم والسباع خُلُقين أو ثلاثة ، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصَولته وحقدُه وصبره على حمل الثِّقْل . ولا يلزَم شبهُ الذئب بقدر ما يتهيأُ فيه من مثلِ غدره ومكره . واستروَاحه وتوحّشه ، وشدّة نُكره .

« كما أن الرجل يصيبُ الرأىَ الغامضَ المرّة والمرّتين والثلاثَ ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهية وذو نكراء أو صاحب بزلاء[١] . وكما يخطئُ الرجلُ فيفحشُ خطؤه فى المرة والمرتين والثلاث ، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبىّ وأبلهُ ومنقوص . »

إنسان الجاحظ الذى اجتمعت فيه الأضداد وشتّى المتناقضات عالم صغير فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه : يقول : « ألا ترى فيه طبائع الغضب والرضا ، وآلة اليقين والشك ، والاعتقاد والوقف[٢] ، وفيه طبائع الفطنة والغباوة ، والسلامة والمكر ، والنصيحة والغشّ . والوفاء والغدر ، والرياء والإخلاص ، والحب والبُغْض ، والجِدّ والهزل ، والبخل والجُود . والاقتصاد والسرف ، والتواضع والكبر ، والأنس والوحشة ، والطفرة والإمهال ، والتمييز والخبط ، والجبن

(١) البزلاء : الرأى الجيد . والشدائد . والنكراء : الدهاء والفطنة .
(٢) والتمنى .

والشجاعة ، والحزم والإضاعة ، والتبذير والتقدير ، والتبذل والادخار ، والتوكل ، والقناعة ، والحرْص ، والرغبة والزهد ، والسخْط ، والرِّضا ، والصبر والجزَع ، والذكر والنسيان ، والخوف والرجاء ، والطمع واليأس ، والتنزه والطبَع ، والشك واليقين ، والحياة والقحة ، والكتمان والإشاعة ، والإقرار والإنكار ، والعلم والجهل ، والظلم والإنصاف ، والطلب والهرب ، والحقد وسرعة الرضا ، والحِدَّة وبُعد الغضب ، والسرور والهمّ ، واللذة والألم ، والتأميل والتمنّ . والإصرار والندم ، والجماح والبدوان ، والعِيّ والبلاغة ، والنطق والخرَس ، والتصميم والتوقف ، والتغافل والتفاطن ، والعفو والمكافأة ، والاستطاعة والطبيعة ، وما لا يحصى عدده . ولا يُعرف حدُّه » .

لقد استطاع الجاحظ ، قبل اثنى عشر قرناً ، أن ينفذ إلى جبلة الإنسان فيصفها وصف العالم النفسانى الخبير بطواياه . وليس هذا فقط بل استطاع أن يصف ملامحه وأن يرسمها بأسلوب تصويرى ملؤه السخرية والدعابة . ولو أن مصوراً كاريكاتوريّاً اتخذ من هذه الملامح مادته ، وأجرى عليها أصباغه وتلاوينه لجاءنا بأطرف الصور المضحكة الحية .

ولا مجال لعرض هذه الصور فحسبنا الإلماع إلى بعضها وهى منبثة فى كتبه — فى كتاب البخلاء ، وفى رسالة التربيع والتدوير . وفى الكثير من رسائله .

لقد اتخذ الإنسان بشتى مظاهره مادة أدبه فسلّط عليه أضواء حيّة من هزئه وسخريته وأساوبه الملىء بالمفارقات العجيبة .

وكثيراً ما يترك قارئه فى حيرة وهو يرسم بطل مسرحيته :

أيصف فضائله أم رذائله ، تقاه أم غوايته ، ورعه أم فسقه ، صدقه أم كذبه ، هداه أم ضلاله ، بخله أم كرمه ، شحه أم تبذيره ، رحمته أم قسوته .

على أنه لا يترك القارئ فى تيه من الحيرة بل سرعان ما تهديه خيوط نقده القاسى المرّ إلى تصوير « الإنسان » بصورته الخفيفة دون هذه الأقنعة التى يستتر بها نوازعه الخفية .

ولو أخذ العرب فن المسرحية عن اليونان كما أخذوا عنهم الكثير من المعارف الإنسانية ، ولو حاول الجاحظ هذا الفن لما قلّ عن سرفوكلس وأرسطوفان وغيرهما من أبطال التمثيليات عند الأغارقة .

فالنماذج البشرية عند الجاحظ أكثر من أن تحصى ، لم يترك طبقة إلا تناول أفرادها بالوصف الدقيق والتحليل النفسانى العميق . وقد لا تعطينا بعض هذه الصور التى أريد أن أضمنها بحثى هذا الصورة الكاملة لأدبه الذى يصوّر المنازع الإنسانية ، فلابدّ من الرجوع إليها فى شتيت كتبه ، ومتابعة فصولها وحكاياتها ونوادرها ، فحسبى من هذا الإلماع توجيه أنظار الشباب المعنيين بالدراسات الأدبية إلى أدب الجاحظ ليقرأوه

ويدمنوا قراءته ، فيرون الأدب الرائع والأسلوب السهل البليغ المنتزع من صميم الحياة . فأديبنا العظيم لا يتقعّر ، ولا يتعاظل ، بل يسترسل على سجيته فيصيب الهدف ، يجمع بين الواقع والخيال ، وبين الوصف والتصوير ، قد يكون الكلام عنده فى لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه الجدّ كما قال ، يسخر فى نقده ويلذع ، ويقسو ويرقّ ، يعبس ويبسم وهو فى جميع صوره هذا الكاتب البليغ والأديب النفسانى الفذّ الذى عرف طبيعة البشر فصوّرهم على حقيقتهم دون تزّيد أو نقصان .

* * *

يصف طائفة كتاب الدواوين الذين يركبهم الزهو والخيلاء حين يصبحون أداة السلطان ولسانه الناطق بقوله :

« إن قبح الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا مَن هو فى معنى الخادم ، ولم نر عظيماً قط تولاها بنفسه أو شارك كاتبه فى عمله » .

وقد عرفنا أن الجاحظ تولى كتابة الدواوين ثلاثة أيام فلم تطق نفسه هذه القيود التى تقسره أن يكتب ما يراد لا ما يريد ، فاستقال وآثر الانطلاق والحرية على قيد الوظيفة وأسارتها .

فحين يصف هذه الطبقة من الكتاب يصفها وصف خبير ،

يقول : « فكل كاتب محكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على اللأواء ، وتلك شروط متنوعة عليه ، ومحنة مستكملة لديه ، وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول زلة وإن أكدى ، ويدركه العزل بأول هفوة وإن لم يرض .

« تجب للعبد استزادة السيّد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى ، وليس للكاتب تقاضى فائدة إذا أبطأ ، ولا التحوّل عن صاحبه إذا التوى ، فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحله من الخدمة محل الأغبياء . ثم هو مع ذلك فى الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفى البحر الطامى من التيه والسرف .

« يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جبّته ، وطوّل ذيله ، وعقص على خده صدغه . أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك » .

ويشير إلى كتاب الدواوين الناشئين بقوله :

« ثم الناشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرئاسة ، وتورّك مشورة الخلافة ، وحجزت السلة دونه ، وصارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر أمثاله ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز

حكمته ، أنه الفاروق الأكبر فى التدبير ، وابن عباس فى العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وعلى ابن أبى طالب فى الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف فى الجزّ والطفرة ، وإبراهيم بن سيار النظام فى المكامنات والمجانسات ، وحسين النجار فى العبادات والقول بالإثبات ، والأصمعى وأبو عبيدة فى معرفة اللغات والعلم بالأنساب . . »

وبعد أن يهزأ بهم هذا الهزء المر ، وبعد أن يضفى عليهم النعوت التى تبرز خصائص صلفهم وكبريائهم وألواناً من جهلهم المطبق يشير إلى تعاليهم ويصف أحدهم بقوله :

« يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَنْ نقل الآثار ، فإن استرجح أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وإن ذكر شريح جرّحه ، وإن نعت له الحسن استثقله ، وإن وصف له الشعبى استحمقه ، وإن قيل له ابن جبير استجهله ، وإن قدم عنده النخعى استصغره[1] . . إلخ »

ألا نرى فى هذا الوصف صورة من صور الكثيرين من الأدباء الناشئين الذين ينكرون فضل مَن تقدمهم من الأعلام ،

---

(١) ذم أخلاق الكتاب للجاحظ . عن ثلاث رسائل نشرها المستشرق يوشع فنكل ، المطبعة السلفية . ص ٤٢ .

يدّعون العلم وهم إلى الجهالة أقرب ، والفهم وهم بالغباوة ألصق ، يريدون أن يفرضوا أنفسهم على عالم الأدب بالهذر والثرثرة والتهويل وهم براء من كل موهبة إلاّ الادعاء باسم العلم والأدب .

هذه النماذج البشرية كثيرة عند الجاحظ . ولو صبها فى تمثيليات لكان لنا منها ، كما قلت ، ثروة فى الأدب المسرحى لا تقل عما تركه الأغارقة . .

ولو رحت أنقل بعض هذه الصور لملأت صفحات . .

يصف لنا ملامح قاض من قضاة البصرة ألحّ عليه الذباب فمنعه وقاره أن يذبه فاحتمله على مضض ، ثم ألحّ عليه إلحاحاً مزعجاً فاحتمله بضيق نفذ معه صبره ، فأخذ يذبه بإشارات مضحكة تصلح مادة لرسام كاريكاتورى بارع .

ولا علينا أن نقضى لحظات مع الجاحظ نرى خلالها تصويره الدقيق لملامح هذا القاضى المتزمّت .

يقول : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار ، لم يرَ الناس حاكماً قط ، ولا زّميتاً ، ولا ركيناً[1] ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه وملك من حركته مثلَ الذى ضبط وملك ، كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ ، فلايزال منتصباً

---

(١) الزميت : العظيم الوقار ، والركين : الرزين .

لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته[١] ، ولا يحوّل رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك ، حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخير وينصرف » .

وإلى هنا ليس فى الصورة إلا وصف وقاره وجلال القضاة أو تزمتهم ثم يكمل الصورة بقوله :

« فالحق يقال : لم يقمْ فى طول تلك المدة والولاية مرّةً إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شربَ ماءً ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه فى طول الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وشتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشيرُ برأسه . وليس إلا أن يتكلم ، ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير ، المعانى الكثيرة . فبينا هو كذلك ذاتَ يوم وأصحابه حواليه ، وفى السماطين[٢] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذُبابة ، فأطال

---

(١) الحبوة : بالفتح وتضم . أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماط : الصف .

المكث ، ثم تحول إلى مؤْق عينيه[١] ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤْق ، وعلى عضه ، ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّ وجهه[٢] ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصدَ إلى مكان لا يحتمل التغافلَ ، أطبق جفنَهُ الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الأطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكن جفنُه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشـــدّ من مرته الأولى فغمس خرطومَه فى مكان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله أضعف ، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرّك أجفانهُ وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنتْ حركتهُ ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغَ صبره وبلغَ مجهودَه ، فلم يجد بدًّا من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرَوْنه ، فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يدَه وسكنت حركتُه ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرَف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابعَ بين ذلك ، وعلم أن فعلهَ كله بعين من حضرَه من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال :

---

(١) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

(٢) يغض وجهه : جعل به غضوفاً وذلك بأن يقبض جلده .

أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب !
وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزّ وجلّ
أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتُ أنى
عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ
خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : « وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً
لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب » .

صورة هذا القاضى الذى منعه وقاره أن يذب عن وجهه
الذباب فاحتمل لجحجه فما حرك رأسه أثناء كلامه ولا رفع يديه ،
حتى إذا زاد لجحجه استعان على ذلك بتحريك أجفانه تحريكاً
يثير الضحك . . وما زال حتى رفع يديه ، ثم خرج عن وقاره
فدفعه بطرف كمه .

هذه الصورة على ما فيها من تصوير دقيق لهذا الوقار
والتزمت ، هى بعض صور الجاحظ المنبثة فى كتبه ورسائله . .

هذه الصورة التى تصوّر الوقار المضحك نرى ما يماثلها
عند رئيس الأساقفة بلون آخر . . فهو لا يتحدث عن وقاره
بل عما يجب أن يكون عليه رئيس الأساقفة من زهد وتقوى ،
ومن خَلق وخُلق وحسن مظهر . .

يقول : « ووقع بين فتىً من النصارى وبين ابن فهريز
كلام . فقال له الفتى : ما ينبغى أن يكون فى الأرض رجل
واحد أجهل منك . وكان ابن فهريز فى نفسه أكثر الناس

علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثلقة .

فقال للفتى : وكيف حلت عندك هذا المحل ؟

قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت ، جيد الحلق ، وأنت دقيق الصوت ، ردىء الحلق ، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها ، وأنت خفيف اللحية صغيرها ، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً فى الرياسة ، وأنت أشدّ الناس عليها كلباً ، وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لا تكون أجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ، وأنت قد شغلت فى طلبها بالك ، وأسهرت فيها ليلك » .

لقد جمع فى هذه الصورة بين ما يتوجّب على هذا الرئيس الروحى من المظاهر التى توحى بالاحترام والإجلال ، ولا سيما الخصائص الخلقية والعلمية والدينية التى لا بدّ منها لمن يتربّع على كرسى هذا المقام الجليل ليستطيع أن يفرض احترامه على أبناء طائفته .

وفى جميع صور الجاحظ ونماذجه البشرية — نرى الإنسان على حقيقته ، فهو إلى هزئه وسخريته يرسم فضائل من يعرض إليهم فتجىء الصورة متناسقة الأالون على أروع ما تكون صور الكثير من الآدميين . .

* * *

وفى رسالة « التربيع والتدوير » نقع على صور آية فى الطرافة لا يستطيع كاتب مهما بلغ من قوة البيان أن يصف أطوار الناس وسجاياهم ، ولا سيما أصحاب الدعاوى العريضة الذين يقحمون أنفسهم فى كل فن من فنون المعرفة وهم منها خواء — كما وصفهم ووصف طباعهم الجاحظ . .

وهذه الرسالة فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، وهى تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الهجاء الذى اعتمده الشعراء والأدباء فى عصره .

[ت]صور ملامحه الجثمانية تصويراً يثير الضحك ، وكشف عن جهله كشفاً مزرياً .

وليرينا مقدار جهله أثار ما يقرب من مائة مسألة فى العلم والأدب . وفى الفلسفة والمنطق وفى شتى المعارف المتداولة فى عصره فأحاط بها إحاطة شاملة وأرانا جهل خصمه بأوليات الأمور . . ولا يهمنا اليوم قيمة هذه الآراء التى كانت سائدة فى عصره . . وهل هى صحيحة أم غير صحيحة ، بقدر ما تهمنا ثقافة الكاتب وأسلوبه الهازئ الساخر الذى يسربله بالنكتة حين يصوب سهم نقده إلى خصمه .

ونقرأ فى هذه الرسالة آراء فى أصل الإنسان فنراه يلتقى مع داروين صاحب نظرية التطور التى تقول : إن كل الكائنات الحية ذات صلة من القرابة بعضها ببعض ، وإنها

كلها حتى الإنسان ، تنحدر من أسلاف بسيطة ، ثم ارتفعت وتطوّرت ، فالحيوانات الثديية كالقردة والنسناس تشبه الإنسان إلى حدّ كبير .

لا أقول إن الجاحظ من القائلين بهذه النظرية . . ولكن كلامه يدلّ على أنه التقى مع داروين بالحدس العلمى لا بالتحقيق الذى تفرضه نظريات العلم الحديثة .

يقول فى ردّه على الملاحدة : « اعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بجذافيرها ، وسلخها من جميع معانيها ، ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قردة ، أو كما مسخ بعض الأمم خنازير ، لكان قد بقى بعض أمورها ، وحبس عليها بعض أعراضها ، كبقية ما مع القرد فى ظاهره من شبه الآدمى ، وبقية ما مع الخنزير فى باطنه من شبه البشرى ، لكنه جلّ ذكره مسخ الدنيا مسخاً متتبعاً ومستقصًى مستفرغاً ، فبين حاليهما جمع التضادّ ، وبين معنييهما غاية الخلاف ، فالصواب اليوم غريب ، وصاحب مجهول ، فالعجب ممن يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ! ، فإن صرت عوناً عليه مع الزمن قتلته ، وإن أمسكت عنه فقد رفدته[1] » .

---

(١) فى مشابهة القرد للإنسان يقول : والقرد يضحك ويطرب ، ويقعى ويحكى ، ويتناول الطعام بيديه ويضعه فى فيه ، وله أصابع وأظفار . وينقى الجوز ، ويأنس الأنس الشديد ، ويلقن بالتلقين الكثير ، إذا سقط فى الماء=

ومن رسالة إلى صديقه الوزير ابن الزيات وهو فى محنته :
« لا والله ، ما عالج الناسُ داءً قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء . . ثم يختمها بذم الدهر فيقول: ولما مسخَ اللهُ الإنسان قرداً وخنزيراً ترك فيهما مشابِهَ من الإنسان، ولما مسخ زماننا لم يترك فيه مشابِهَ من الأزمان » .

* * *

لسنا هنا فى معرض تحليل آرائه العلمية ومدى مطابقتها للنظريات العلمية فى عصرنا هذا ، ولا سيما وقد مرّت على آرائه ما ينيف على ألف سنة ونظريات العلم تتطوّر مع الزمن وفى لحظات معدودة ، ولكننى أردت من هذه الإشارة أن ألمح إلى ما كان عليه الجاحظ من ثقافة علمية تبدو واضحة فى بعض كتبه وفى الرسالة التى كتبها فى هجاء زميل تطاول عليه وحطّ

غرق ولم يسبح ، كالإنسان قبل أن يتعلم السباحة . فلم تجد الناس للذى اعترى القرد من ذلك – دون جميع الحيوان علة – إلا هذه المعانى التى ذكرتها من مناسبة الإنسان من قبلها .

ويقول : واجتمع فى القرد الزواج والغيرة . وهما خصلتان كريمتان ، واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان ، ونحن لم نر وجه شيء غير الإنسان أشبه صورة وشبهاً على ما فيه من الاختلاف . ولا أشبه فماً ووجهاً بالإنسان من القرد .

الحيوان ج ٤ ص ٩٨

من أدبه فردّ عليه لا بالسب والشتم كما كانت طريقة الهجاء في عهده بل جعل الهزء والسخرية مادة الردّ فجاء بالأعاجيب .

يصف خصمه بقوله : « كان أحمدُ بن عبد الوهاب مفرطَ القصرَ ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جُفرته[٢] واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جَعْد الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص[١] البطن ، معتدل القامة ، تامّ العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قِصَر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[٣] ، رفيع العماد ، عادىَ القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم ، والسعة فى العلم .

وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب . حديث الميلاد » .

وفى الرسالة ، إلى هذه الصورة عشرات الصور عن ملامحه الجثمانية تصلح لعدة صور كاريكاتورية ، بل هى صورة كاريكاتورية بحدّ ذاتها لو التفت إليها المعنيون بفن الرسم عندنا لجاءونا بأطرف الصور . أما ملامحه النفسانية فهى آية

---

(١) الجفرة : جوف الصدر .

(٢) أخمص : ضامر .

(٣) الباد : باطن الفخذ .

فى تصوير منازع الأدعياء فى كل لون من ألوان الحياة . .
يصف دعواه لشتى فنون المعرفة بقوله :

« . . كان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها . .

وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفاً بالمجاذبة ، متتابعاً فى العنود ، مؤثراً للمغالبة ، مع إضلال الحجة والجهل بمواضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ونكد الخلاف ، وما فى الخوض من اللغو الداعى إلى اللهو ، وما فى المعاندة من الإثم الداعى إلى النار ، وما فى المجاذبة من النكد ، وما فى التغالب من فقدان الصواب .. وكان قليل السماع غمراً ، وصُحفياً غفلا ، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر . . ولا يفصل بين اعتزام الغُمْر ، واستبصار المحق ، يعُدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب .

ويقول بعد أن ضاق بدعواه العريضة :

« فلما طال اصطبارُنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، ونألفُ سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدىَ صفحته للحاضر والبادى . وسكان كل ثغر وكل مصر ،

بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها ، وأُعرفُ الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل منْ كان فى مكة ليكفّوا عنا من غربه ، وليردّوه بذلك إلى ما هو أولى به . .

لا أريد أن أطيل الوقوف عند هذه الرسالة الفريدة فى أدبنا والتى يحسن بكل أديب مثقف أن يقرأها مرة ومرات بل حسبى الإلماع إلى بعض فقرات منها التى تصوّر مثالب صديقه وتسخر منه بقدر ما تصوّر سجايا الطبع البشرى .

يقول له هازئاً : « يعجبنى منك — جعلت فداك — بغضُ الشُّهرة ودبيبك فى غمار الحشوية ، استغناءً بنفسك ، وصوناً لقدرك ، ومعرفةً بما أعطيت ، وثقةً بالذى أوتيت ، وما أقل ، بحمد الله ، ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم فزاد الله شاكرَك نعمة وناصِرَك عزة ! »

فكل الصفات التى يوردها تناقض ما عرف عنه :

ويستمر فى حديثه الهازئ وتهكمه الساخر فيخاطبه بقوله :

« جعلتُ فداك، قد شاهدتَ الإنس مذ خُلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحتجبوا ، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة . وأغفالاً وموسومة، وسالمة مدخولة ، فما تخفى عليك الحجة من الشبهة ، ولا السُّقم من الصحة ، ولا الممكن من الممتنع ، ولا المستغلق من المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شبه الدليل من الدليل ، وعرفتَ علامة الثقة من علامة

الريبة ، حتّى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات معلومة ، والدنيا بحذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشهدتَ العلل وهى تولد ، والأسبابَ وهى تُصنع ، فعرفتَ المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه » .

وبعد أن يضفى عليه هذه النعوت ويجعله علامة دهره وفريد عصره يسأله بعض الأسئلة المحرجة فى طبيعة الحياة وظواهر الكون وهى أسئلة وثيقة الاتصال بثقافة عصره .

« . . فما تقول فى الرِّئى وما تقول فى الرؤيا ؟ وما تقول فى إكسير الحياة ؟ وما تقول فى كيموس الصنعة ؟ وما تقول فى الزجر؟ وما تقول فى الفراسة ؟ وما تقول فى الفأل ؟ وما تقول فى الطِّيرَة ؟ . . . »

ويعدّد له الكثير من أحوال الإنس والجن ، ومن الحقائق والأباطيل ، ليحرجه ويكشف عن جهله وادعائه ، وعن صلفه وغروره .

وينتقل بنا من وصف ظاهرة إلى أخرى ، فيصف جماله ويتغزّل بحسنه . . أى جمال وأى حسن وقد وصفه فى بدء الرسالة بأنه مفرط القصَر ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، ويدعى البساطة والرشاقة ،

وكان كبير السن، ويدّعي أنه معتدل الشباب :

يقول : وهل غايةُ الجميل إلا وصفلك ، وهل زين البليغ إلا مدحلك ؟ وهل يأمُل الشريف إلا اصطناعك، وهل يرجو الملهوف إلا غياثك ؟ وهل للطلاب غرض سواك ؟ وهل للغوانى مثلٌ غيرك ؟ وهل للماتح[1] رجزٌ إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟

« فلولا أن يأخذ الواصف بنصيبه منك ، وبحصته من الصدق فيك ، وبسهمه من الشكر لك . لكان الإطناب عندهم فى وصفلك لغواً ، وكان تشقيق الكلام عجزاً ، ولكان تكلفه فضلاً .

ومن هذا الذى يضيره أن يكون ذلك، ويمتحنَ بالتسليم لك ولم يعد إقرارَه إحساناً وخضوعه إنصافاً ؟ أم مَن الشبيه بلك فى منزلتك ؟ ألستَ خلفَ الأخيار وبقية الأبرار ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؟ وأى شىء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىء يفوق شيئاً أو يفوقه شىء ؟ أو يقال : « لو لم يكن كذا لكان أحسن » أو ، « لوكان كذا لكان أتم » ؟

وبعد هذه التوطئة يصف سحر جماله :

« وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض

---

(١) الماتح : هو المستق ، وكان العرب يتناشدون الأراجيز على أفواه الآبار .

والحلاوة التى لا تستحيل والتمام الذى لا يحيل ، إلا فيك أو عندك أو لك أو معك !

«لا . . بل أين الحُسن المصمَت ، والجمال المفرَد والقدّ العجيب والكمال الغريب والملح المنثور والفضل المشهور ، إلا لك وفيك .

«وهل على ظهرها جميل حسيب ، أو عالمٌ أريب ، إلا وظلك أكبرُ من شخصه ، وظنُّك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه . وحلمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من فحواه ؟ وهل فى الأرض حلم سواك ، وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل حملت النساء أجلّ منك»

ويمضى هكذا فى مفارقاته العجيبة إلى أن يقول :

«ولو لم يكن إلا أنـّا لا نستطيع أن نقول فى الجُملة وعند الوصف والمدحة : «هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبهى من الغيث ، ولهو أحسن من يوم الحلبة . . . »

«وإنا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق : «كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدَمه لسان حية ، وكأن عينه ماوية ، وكأن بطنه قِبطية ، وكأن ساقه بُرْدّية ، وكأن لسانه ورَقة ، وكأن أنفه حدّ سيف ، وكأن حاجبه خطّ بقلم ، وكأن لونه الذهب وكأن عوارضه البرَد ، وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه هلال .

«ولهو أطهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، ولهو أمضى من السيل ، وأهدى من النجم — لكان ذلك البرهان النيرّ ،

والدليل البيّن ! وكيف لا يكون ذلك ، وأنت الغاية فى كل فضل ، والنهاية فى كل شكل ! »

وليزيد من هزئه به وسخريته عليه جعل النساء تقع فى حبه بعد أن صوره ، كما قلنا ، آية فى البشاعة ونفى عنه كل مظاهر الرشاقة : صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان ، طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، عتيق الوجه ، وإلى ما شئت من صوَر منفرة :

يقول : « وبعد فمن يطمع فى عيبك ، بل منْ يطمع فى قدرك . وكيف . وقد أصبحتَ وما على ظهرها خودٌ[1] إلا وهى تعثرُ باسمك ، ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريحَ حبك ، ولا محجوبةٌ إلا وهى تنقب الخروق لممرّك ، ولا عجوز إلا وهى تدعولك ، ولا غيور إلا وقد شقيَ بك !

فكم من كبد حرّى منضَجه ، ومصدوعة مفرَثَة[2] وكم من حشا خافق ، وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جامدة ، وأخرى باكية ! . .

وكم من عبرَى مُولهة وفتاة معذّبة ، قد أقرَح قلبها الحزن ، وأجمد عينها الكمَد . قد استبدلت بالحلْى العطلة وبالأنس الوحشة . وبالتكحيل المرَه[3] ، فأصبحتْ والهة مبهوتة ،

---

(١) الخود : الشابة الجميلة . (٢) مفرثة : مشقوقة .

(٣) المره : عدم التكحيل .

وهائمة مجهودة بعد طرف ناصع وسن ضاحك وغنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد وشعلة تتوهج ! » .

ويمضى فى وصف ملكاته الفكرية ووصف جماله وهو وصف يثير الضحك إلى أن يقول :

« وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال ويشبه به أهلُ الجمال . وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويظهر معوجا شختاً[1] ، وأنت أبداً قمرُ بدر وبحر غمر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السرار[2] . ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون ضراً كما يكون نفعاً ، ويقرض الكتان ، ويشجب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت دائم اليمن ، ظاهرُ السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النضج ، تكسو من أعراه ، وتكنُّ من أشحبه وعلى أنه قد محق حسنه المحاق ، وشانه الكلف[3] ، وليس بذى توقد واشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا متلألئ ، يعاوه الغيم ، ويكسوه ظل الأرض . ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله . وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصفار ، من بخار البحار ، وأنت ظاهر التام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصرُ ،

---

(١) شخناً ضامراً : نضواً مهزولا .

(٢) السرار : الليالى التى يختنق فيها القمر فلا يرى .

(٣) الكلف ما يعترى القمر من حمرة الخسوف . والمحاق آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

ناری التوّقد ، هوائی الذهن ، دُرّی اللون ، روحانی البدن !

وفى مترادفات من الأضداد التى تصوره على غير حقيقته يختم هذه الفقرات بقوله :

« على أن ضياءه — ضياء القمر — مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المعير والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم وما لا حسّ فيه ، فلا زالت الأرض بلك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ، ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً » .

وبعد فلا يهمنا من رسالة التربيع والتدوير « هجاء أحمد ابن عبد الوهاب » . فأمثاله عندنا وعند كل الأمم . وفى كل عصر كثيرون ، بل الذى يهمنا هذه الثروة البيانية والتصوير الكاريكاتورى الذى جادت به يراعة الجاحظ بأسلوب غاية فى السهولة والجرس الموسيقى فتشعر وأنت تقرأ هذه الرسالة الهجوية . وكأنك تقرأ قصة محبوكة الأطراف تمثل أنماطاً من العقول الآفنة وأصنافاً من البشر المختلفى الأهواء والميول والذين يجمعون النقائض وتتلاقى فى « ذاتيتهم » شتى المتناقضات !

وهنا تبدو براعة الجاحظ فى التصوير النفسانى العميق الذى لا يقلّ فى نتائجه عما انتهى إليه أكابر علماء النفس .

* * *

إن مجال الكلام عن النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ مجال طويل ، فهو طراز وحده بين أدبائنا القدامى ، عاش

فى صراع عنيف مع الحياة ، وعرف البشر على حقيقتهم فصوّر طباعهم أصدق تصوير .

لم يمتلئ قلبه بالحقد ، ولم ينظر إلى الدنيا النظرة التشاؤمية التى تريه الخير شراً ، والنعيم بؤساً ، والنور ظلاماً ، والأغاريد بكاءً وعويلاً . والبسمات التى ترقرق أضواؤها على الشفاه الحالمة ازوراراً ونقمة وعبوساً — لقد فلسف الحياة كما يجب أن تكون الحياة مشرقة الأسارير فغمس قلمه فى تصوير جوانبها المتباينة والنفاذ إلى أعماق أطوائها ثم كتب فجاء وصفه آية فى الدقة وبراعة التصوير .

كان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم .

وكانت سخريته هى المنفذ المنطلق لجميع مشاكل الحياة . . وللكثير من الهموم والأحزان التى أخذت طريقها إلى نفسه . . فما تكاد تجثم على صدره حتى ينفس عنها بقطعة تصويرية أو بقصة يرسم خياله الخصب خيوطها ، هذا إن لم يستطع انتزاعها من صميم الحياة .

وكان خصومه يتندّرون عليه . ويلصقون به شتى المثالب ، فلا يتخاذل ، ولا تنهار قواه ، بل كان يصمد ، ويكيل لهم الصاع صاعين .

قيل لأبى هفان لمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضعَ رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت

فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة !

وكان أكثر تندرهم على دمامة وجهه وجحوظ عينيه ، فشبهوه بالقرد تارة ، وبالخنزير تارة أخرى . . كما شبهوه بالشيطان . . .

والقصة التى يرويها عن العجوز الشمطاء التى قادته إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا . وانصرفت . . جعلته فى شبه حيرة وتعجب . وقد ذهل . . فلما انصرفت العجوز . . سأل الصائغ عن قولها : « مثل هذا . . » فقال له : إنها أتت إلىّ بفص . . وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان . . فأجبتها : « إننى لم أر الشيطان قط » فما كان منها إلاّ أن أتت بك !

ومع أن القصة جاءت على لسانه إلا أننى أميل أن تكون من تلفيق خصومه . . وقد دست فى كتبه . . .

وما كان هذا التندر عليه إلا ليزيده إمعاناً فى رسم طبائع الناس وتصويرهم على حقيقتهم دون تلك الأقنعة المزيفة التى يتبرقع بها الكثيرون . .

وقد انتقم لنفسه لا بنفس أساليبهم بل بأسلوبه الذى يضفى على الصور المرئية وغير المرئية جدة فى الأسلوب التصويرى وجدة فى الأسلوب الواقعى .

وتبدو عذوبة شخصيته بحدة ذكائه ووفرة نكاته التى تنثال على طرف لسانه فيرويها ولو جاءت على خلاف معتقده .

وقد يرويها على لسان غيره كالقصة التالية :

كان رجلٌ من أهل السواد تشيّع . . وكان ظريفاً .

فقال له ابن عم له :

بلغني أنك تبغض عليًّا عليه السلام ، ووالله لئن فعلتَ لتردَنّ عليه الحوضَ يوم القيامة ولا يسقيك .

قال : والحوض في يده يوم القيامة .

قال : نعم .

قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتلُ الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش !

فقيل له : أتقول هذا مع تشيّعكَ ودينك ؟

قال : والله . . لا تركتُ النادرةَ ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النارَ في الآخرة .

واعتزازه بشخصيته كانت تملي عليه خواطر هي الهزء بسماجة الإمعيين والذين يحرجونه بأسئلتهم الباردة . .

من هذه المباسطات القصة التالية :

دخل عليه أحد الفضوليين فسأله عن حاله . .

فقال له : سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً ،

حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلات إليّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها وأجلس على الليّن الطري ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر حتى يأتي الله بالفرج . .

فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه . .

قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد ابن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى . . فهذا هو الفرج !

* * *

وقصة برنارد شو حين جاءته غريتا غاربو الممثلة الحسناء ، وهى فى فجر صباها وقد أخذت بسحر حديثه بعد أن قرأت الكثير من قصصه ورواياته وطريف مقالاته ونكاته — جاءته تقترح عليه أن يتزوج بها عسى أن يرزق طفلاً له رأس أبيه ووجه أمه . .

ماذا كان جواب برنارد شو ؟

قال : إنه يرحب بالمقترح الجميل كل الترحيب لولا خوفه من مكائد الوراثة . . فقد يأتى الطفل وله رأس أمه ووجه أبيه !

هذه الصورة ذاتها نراها عند الجاحظ الدميم الوجه ، القبيح التقاطيع ، المشوه الخلقة ، فقد اشترى جارية تركية رجاء أن يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه . .

إن حذر برناردشو كان أقوى من نهم الجاحظ الجنسى . .

فقد تزوج الجارية التركية فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها !

* * *

عاش الجاحظ سنوات طوالاً فى صراع مع الحياة . . ومع الناس . . وفى صراع مع المذاهب والتيارات الفكرية التى

خاض غمارها بذهن وقّاد . . فحيثما تلفتنا فى واحات أدبه النضير نجد أزاهير مختلفة الألوان ذات عبق . ونجد القتاد والأشواك ذات الوخزات الحادّة ، بل نجد ، إلى هذا ، ذهناً متفتحاً لشتى ألوان الثقافات ، وقلباً ذكيًّا ، وشعوراً مرهفاً ، وإحساساً نفاذاً .

وظلّ حتى العقد العاشر من عمره لم يهدأ إنتاجه الفكرى بالرغم من الأمراض الوبيلة التى لازمته : من الفلج والنقرس . .

* * *

يقول المبرد : دخلت على الجاحظ فى أخريات أيامه فقلت له : كيف أنت ؟

فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوجٌ لو حزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ[1] لو طار الذبابُ بقربه لآلمه .

وأشدّ من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها . . ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنتَ شيخٌ
كما قد كنتَ أيامَ الشباب

---

(١) منقرس : مصاب بالنقرس ، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين ، وأصابع الرجلين ، وفي إبهامهما أكثر .

لقد كذّبتك نفسك : ليس ثوبٌ
دريس[١] كالجديد من الثيـاب

* * *

وكان المتوكل قد طلب إلى عامله أن يحمل إليه الجاحظ لتعليم ولديه . . فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شق مائل . ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل حائل[٢] .

وقال لمتطبب يشكو إليه علته : اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلتُ بارداً أخذ برجلى ، وإن أكلت حارًّا أخذ برأسى .

* * *

فى سنة خمس وخمسين ومائتين انتهت حياة الجاحظ بعد أن ترك فى دنيا الأدب ثروة ضخمة من التآليف فى شتى فنون المعرفة ما زالت تتناقلها الأجيال وتتدارسها بلذة وشوق فتجد عنده الأدب الحى والثقافة الإنسانية التى ترمز إلى حيوية العقل العربى المتطوّر الذى ما عرف قطّ التوقف والجمود بل التجاوب مع الثقافات العالمية المنطلقة .

---

(١) دريس : بال .
(٢) متغير .

لولا قوة الراعى
لهلكت الرعية

إن الناس لا يصلحهم إلاّ رئيس واحد يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل لهم نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم .

إذ قد علم الله سبحانه وتعالى أن صلاح عامة البهائم فى أن يجعل لكل جنس منها فحلاً يوردها الماء ويصدرها وتتبعه إلى الكلأ . كالعير فى العانة والفحل فى الإبل والمحجمة ، وكذلك النحل العسالة والكراكى ، وما يحمى الجحور فى المروج إلا الحصان ، فجعل منها رؤساء متبوعة وأذناباً تابعة .

ولو لم يقم الله للناس الوزعة من السلطان ، والحماة من الملوك . وأهل الحياطة عليهم من الأئمة لعادوا نشراً لا نظام لهم ومتكلبين لا زاجر لهم ، ولكان من عزيز ومن قدر قهر ، ولما زال الشر راكداً ، والهرج ظاهراً حتى يكون التغابن والبوار ، وحتى تنطمس منهم الآثار ، ولكانت الأنعام طعاماً للسباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفسها . جاهلة بكثير من مصالح شأنها ، فوصل الله تعالى عجزها بقوة من أحوجه إلى الاستمتاع

بها ، ووصل جهلها بمعرفة من عرف كيف وجه الحيلة فى صونها والدفاع عنها ، وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوها بالحراسة لها والذياد عنها ، ويردّ قويها عن ضعيفها ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها .

فلولا السائس ضاع المسوس . .

ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية . .

* * *

وانفراد السيّد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الألفة ، ويصلح شأن الجماعة .

وإذا كانت الجماعة، انتهت الأعداء وانقطعت الأهواء .

التعاون الاجتماعى

ثم اعلم ، رحمك الله تعالى ، أن حاجةَ بعض الناس إلى بعض ، صفةٌ لازمةٌ فى طبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتة لا تزايلهم ، ومحيطةٌ بجماعتهم ، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم ، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم — مما يعيشهم ويحييهم ، ويمسك بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التعاون فى دَرْك ذلك ، والتوازُر عليه — كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من

الارتفاق بأمورهم التى لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولةٌ بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى ، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى ، معانٍ متضمّنةٌ ، وأسباب متصلة ، وحبال منعقدة ، وجعل حاجتَنا إلى معرفة أخبار منْ كان قبلنا ، كحاجة منْ كان قبلنا إلى أخبار منْ كان قبلهم ، وحاجة منْ يكون بعدنا إلى أخبارنا ، ولذلك تقدّمت فى كتب الله البشارات بالرسل ، ولم يسخر لهم جميعَ خلقه ، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قِوامٌ وقوت ، والأخرى لذةٌ وإمتاع وازديادٌ فى الآلة ، وفى كل ما أجذلَ النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتّساع معرفتهم وبُعْد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها ، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز . . إلا بعدم الأعيان ، إذ كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعتاً من نعوت العبيد .

لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخرَ له . فأدناهم مسخرٌ لأقصاهم ، وأجهلهم ميسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوجَ الملوك إلى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة إلى الملوك فى باب ، وكذلك الغنى والفقير ، والعبد وسيدُه ، ثم جعل الله تعالى كل شىء للإنسان

خوَلاً ، وفى يده مذَلـَّلاً ميسراً ، إما بالاحتيال له والتلطف فى إراغته واستمالته ، وإما بالصولة عليه ، والفتك به ، وإما أن يأتيه سهواً ورهواً . على أن الإنسان لولا حاجتهُ إليها ، لما احتال لها ، ولا صال عليها ، إلا أن الحاجة تفترق فى الجنس والجهة والجبلـَّة ، وفى الحظ والتقدير .

ثم تعبـَّدَ الإنسان بالتفكير فيها ، والنظر فى أمورها ، والاعتبار بما يرى ، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة . وتلك الحاجات اللازمة ، بالنظر والتفكير ، وبالتنقيب والتنقير ، والتثبت والتوقف ، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها ، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها والبيان عنها .

ضرورة المجتمع
إلى البيان

وهو البيانُ الذى جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم ، ومعرفاً لمواضع سد الخـَلـَّة ورفع الشبهة ، ومداواة الحيرة ، ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة ، والأجسام الجامدة ، والأجرام الساكنة ، التى لا يتعرَّف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب ، وينابيع العلم ، إلا بالعقل الثاقب اللطيف ، وبالنظر التامّ النافذ ، وبالأداة الكاملة ، وبالأسباب الوافرة ، والصبر على مكروه

الفكر ، والاحتراس من وجوه الخدع والتحفظ من دواعي الهوى ، ولأن الشكل أفهمُ عن شكله ، وأسكنُ إليه وأصبّ به ، وذلك موجود في أجناس البهائم ، وضروب السباع ، والصبيُّ عن الصبيّ أفهمُ له ، وله آلف وإليه أنزع ، وكذلك العالمُ والعالم ، والجاهل والجاهل ، وقال الله عزّ وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجَعَلْنَاهُ رَجُلاً » لأن الإنسان عن الإنسان أفهم ، وطباعه بطباعه آنس ، وعلى قدر ذلك يكون موقعُ ما يسمع منه .

ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد ، بل جمع ذلك ولم يفرِّق ، وكثّر ولم يقلل ، وأظهرَ ولم يخفْ ، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم ، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم . في أربعة أشياء . وفي خصْلة خامسة . وإن نقصتْ عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها ، فقد تبدل بجنسها التي وضعت له وصرفت إليه . وهذه الخصال هي : اللفظ ، والخط ، والإشارة ، والعقد ، والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة ، وصدق الشهادة . ووضوح البرهان ، في الأجرام الجامدة والصامتة ، والساكنة التي لا تتبين ولا تحس ، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها ، أو عند ممسك خلى عنها ، بعد أن كان تقييده لها .

ثم قسّم الأقسام ورتّب المحسوسات ، وحصّل الموجودات ،

فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك الناظر واللامس فى معرفة العقد ، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر فى ذلك على قدر نصيب اللامس ، وجعل الخطّ دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه ، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه ، وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه ، مما قد أحصاه وحفظه وأتقنه وجمعه ، وتكلّف الإحاطة به ، ولم يجعل للشامّ والذائق نصيباً .

البيان

كلما كانت الدلالةُ أوضح وأفصح ، وكانت الإشارةُ أبين وأنور ، كان أنضح وأنجع .

* * *

الاستعانة بالغريب من « الألفاظ » عجز .

* * *

أحسنُ الكلام ما كانَ قليلُهُ يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه .

* * *

لكل ضرب من الحديث ضربٌ من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوعٌ من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزْل للجزْل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال ,

ينبغي للمتكلم — أى منْ كان من أصحاب علم الكلام والجدل — أن يعرفَ أقدار المعانى ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسمَ أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .

* * *

متى سمعتَ ، حفظك الله ، بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا معَ إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير .

وكذلك إذا سمعتَ بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً ، فإن ذلك يفسدُ الإمتاع بها ، ويخرجها من صُورتها ، ومن الذى أريدت له . .

لكل كاتب ألفاظه

. . ولكل قـَوْمٍ ألفاظٌ حظيتْ عندهم ، وكذلك كلُّ بليغ فى الأرض ، وصاحبِ كلام منثور ، وكل شاعر فى الأرض وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج وألف

ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها فى كلامه وإن كان واسع العلم ، غزير المعانى ، كثير اللفظ ، فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التى سبقتْ إلى قلوبهم ، واتصلت بطبائعهم ، وجرت على ألسنتهم : التناكح ،والنتائج . والمزاج ، والنور والظلمة ، والدفاع والمناع ، والساتر والغامر ، والمنحل والبطلان ، والوجدان ، والأثير ، والصدّيق[١] وعمود السبح[٢] ، وأشكالاً من هذا الكلام . فصار وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا ، وكذلك هو عند عوامّنا وجمهورنا ، ولا يستعمله إلا الخواص ، وإلا المتكلمون .

الألفاظ المعبّرة

لكل ضرب من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ .
ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء . . .
فالسخيف للسخيف . والخفيف للخفيف ، والجزْل

(١) الصديق : يعنون به المؤمن الخالص الإيمان . وفى اعتقاد المانوية أن الصديق حين يحتضر يحضره أربعة آلهة ومعهم ركوة ولباس وعصابة وتاج وإكليل النور فيلبسونه التاج والإكليل ويعطونه الركوة بيده . ويعرجون به فى عمود السبح إلى فلك القمر .

(٢) السبح : يراد به العروج والصعود إلى السماء . وفى ذلك العمود الوهمى ترتفع التسابيح والتقاديس والكلام الطيب وأعمال البر .

للجزل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية . والاسترسال فى موضع الاسترسال .

وإذا كان موضع الحديث على أنه مُضْحِكٌ ومِلْهٍ ، وداخلٍ فى باب المزاح والطيب ، فاستعملتَ فيه الإعرابَ ، انقلبَ عن جهته ، وإن كان فى لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة ، صارَ الحديثُ الذى وُضع على أن يسُرَّ النفوسَ يكربها ، ويأخذُ بأكظامها .

* * *

ولكل صناعة ألفاظٌ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة ، وقبيحٌ بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة ، أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والتجار . أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه إذا تحدث ، أو خبره إذا أخبر .

وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الإعراب ، وألفاظ العوامّ وهو جىّ صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل .

الألفاظ والمعانى

وإنما الألفاظُ على أقدار المعانى ، فكثيرُها لكثيرها ، وقليلُها لقليلِها ، وشريفُها لشريفها ، وسخيفُها لسخيفها .

والمعانى المفردةُ ، البائنة بصورها وجهاتها ، تحتاج إلى أقل مما تحتاج إليه المعانى المشتركة ، والجهات الملتبسة .

ولو جَهِد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعانى ، بكلام وجيز يغنى عن التفسير باللسان ، والإشارة باليد والرأس — لما قَدَروا عليه .

وقد قال الأول : « إذا لم يكن ما تريدُ فأرد ما يكون »

وليس ينبغى للعاقل أن يسُومَ اللغات ما ليس فى طاقتها ، ويسُومَ النفوس ما ليس فى جبلتها لذلك صار صاحبُ كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طابَ منْ قِبَله علم المنطق. وإن كان المتكلم رفيق اللسان ، حسن البيان ، إلا أنى أشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحَنّ ، وبالنوادر أشغف ، وإلى قصار الأحاديث أميل ، وبها أصَبّ — أنها خليقةٌ لاستقبال الكثير وإن استحقّتْ تلك المعانى الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أردّ[1] .

---

(١) أى أنفع : وفى اللسان هذا أمر أرد عليه أى أنفع له .

الشكل والمضمون

المعانى مطروحةٌ فى الطريق يعرفها العجمىّ والعربى ، والبدوى والقروى ، والمدنى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ ، وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجَوْدَةَ السبّك .

فإنما الشعر صناعة وضربٌ من النسج ، وجنس من التصوير .

وقد قيل للخليل بن أحمد : مالك لا تقول الشّعر؟ قال : الذى يجيئنى لا أرضاه . والذى أرضاه لا يجيئنى .

فأنا أستحسنُ هذا الكلام ، كما أستحسنُ جوابَ الأعرابى حين قيل له : كيف تَجِدُكَ ؟

قال : أجدنى أجدُ ما لا أشتهى ، وأشتهى ما لا أجد !

البلاغة

ومتى شاكل اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفْقاً ولذلك القدر لِفقاً[1] ، وخرج من سَمَاجة الاستكراه وسَلِمَ

(١) اللفق : أحد شقى الملاءة . . . والمراد : مساواة اللفظ لمعناه وملاءمته له .

من فساد التكلّف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنعَ جانبَهُ من تأول الطاعنين ، ويحمي عِرضَه من اعتراض العائبين ، ولا يزالُ القلوب به معمورةً ، والصدورُ به مأهولةً .

ومتى كان اللفظُ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيَّراً من جنسه ، وكان سليماً من الفُضُول ، بريئاً من التعقيد . حُبِّبَ إلى النفوس، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشَّتْ له الأسماع ، وارتاحتْ له القلوب ، وخفّت على ألسُنِ الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكرُهُ ، وعظم فى الناس خطرُهُ ، وصار ذلك مادّةً للعالم الرئيس ، ورياضةً للمتعلِّم الرَّيِّض ، ومنْ أعارَه من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حبب إليه المعانى ، وسلّس له نظامُ اللفظ ، وكان قد أغنى المستمعَ عن كدّ التكلّف ، وأراحَ قارئَ الكتاب من علاج التفهم . .

الكاتب

ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان ، عذبَ ينابيع البيان ، إذا حاور سدّدَ سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلّمُ العامة بكلام الخاصّة ، ولا الخاصة بكلام العامة .

العناية بالتأليف

ينبغى لمنَ كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلّهم له أعداء ، وكلّهم عالم بالأمور ، وكلّهم متفرّغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدَع كتابه غُفلاً ، ولا يرضى بالرأى الفطير . فإن لابتداء الكتابة فِتنةً وعَجباً ، فإذا سكنت الطبيعة . . أعاد النظرَ فيه . . فيتوقف عند فصوله توقفَ مَنْ يكونُ وزنُ طمعه فى السلامة أنقصَ من وزن خوفه من العيب .

التفكير الصحيح

« الخطأ كثيرٌ غامر ومستول غالب ، والصواب قليلٌ خاص ومقموعٌ مستخفّ » ويقول : « لعمرى إن العيون لتخطئُ . وإن الحواسّ لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن. وما الاستبانةُ الصحيحة إلا للعقل . . . »

صعوبة ترجمة الشعر

. . والشعر لا يُستطاع أن يترجَم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوِّل تقطّع نظمهُ وبطل وزنه ، وذهب حسنُه ، وسقطَ

موضعُ التعجب ، لا كالكلام المنثور .

والكلامُ المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذى تحوّل من موزون الشعر ..

* * *

وقد نُقلت كتبُ الهند ، وترجمت حكمُ اليونانية ، وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازدادَ حُسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حوّلت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع أنهم لو حولّوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعتْ لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم . وقد نقلت هذه الكتب مِن أمّة إلى أمة ، ومن قرنٍ إلى قرن . ومِن لسانٍ إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخرَ من ورثها ونظر فيها . فقد صحّ أن الكتبَ أبلغُ فى تقييد المآثر . من البنان والشعر .

* * *

ثم قال بعضُ منْ ينصر الشعر ويحوطُه ويحتجُّ له : إن الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيمُ ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدىَ الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجرىّ ، وكيف يقدِر علي أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها علي حقها وصدقها ،

إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها . مثل مؤلف الكتاب وواضعه .

فمتى كان رحمه الله تعالى ابنُ البطريق . وابن ناعمه ، وأبو قرة ، وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفع مثل أرسطاليس ؟ ! ومتى كان خالدٌ مثل أفلاطون ؟ ! . . .

شرائط الترجمان

ولابدّ للترجمان من أن يكون بيانُه فى نفس الترجمة ، وفى وزن علمه فى نفسِ المعرفة .

وينبغى أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها ، حتى يكون فيهما سواءً وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخلَ الضيمَ عليهما ، لأن كلِ واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها ، وتعترضُ عليها . وكيف يكون تمكّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة . وإنما له قوّةٌ واحدة . فإن تكلم بلغة واحدة استُفْرِغتْ تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثرَ من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكلما كان البابُ من العلم أعسرَ وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المترجم ، وأجدرَ أن يخطئُ فيه . ولن تجد البتة مترجماً يفى بواحدٍ من هؤلاء العلماء .

اللسان

أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما يعرف زوائد الغنى .

دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين فى اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يردّ به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعزّ ترد به الأحزان ، ونحاصة تزهى بالضيقة ، وملهى يونق الأسماع .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله امرأ أصلح من لسانه .

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم فأبلغ فى حاجته فقال : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها .

اللفظ والإشارة
بين الإنسان والحيوان

.. لا يخرج الحيوان فى لغة العرب من فصيح وأعجم ، كذلك يقال فى الجملة ، كما يقال الصامت لما لا يصنع صمتاً قط ، ولا يجوز عليه خلافه . والناطق لما لم يتكلم قط ، فيحملون ما يرغو ، ويثغو ، وينهق ، ويصهل ، ويشحج ، ويخور ، ويبغم ، ويعوى ، وينبح ، ويزقو . ويصغو ، ويهدر ، ويصفر ، ويصوصى ، ويقوقى ، وينعب ، ويزأر ، وينزب ، ويكش ، ويعج[1] ، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض ، ولذلك أشباه كالذكور والإناث إذا اجتمعا ، وكالعير التى تسمى لطيمة ، وكالظعن ، فإن هذه الأشياء إذا وجد بعضها إلى بعض أو أخذ بعضها من بعض ، سميت بأنبه النوعين ذكراً وبأقواهما .

---

(١) الرغاء للإبل ، والثغاء للشاء ، والنهيق للحمير ، والصهيل للخيل ، والشحيج للبغال ، والخوار للثيران . والبغام للظباء . والعواء للذئاب ، والنباح للكلاب . والزقاء للديكة . والضغاء للسنانير ، والهدير للفحول ، والصفير للنسور ، والصوصاءة للجراء . والقوقأة للدجاج . والنعيب للغربان والبوم . والزئير للأسد ، والنزيب للظباء أو ذكورها خاصة ، والكشيش للأفاعى تحدثه بجلودها ، والعجيج الصياح . ويراد بها الفحيح وهو صوت الأفاعى الذى تحدثه بأفواهها .

والفصيح هو الإنسان ، والأعجم كل ذى صوت لا يفهمُ إرادته إلا من كان من جنسه .

ولعمرى أنا نفهم عن الفرَس والحمار والكلب والسنور والبعير . . كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده[1] ، كما نفهم إرادةَ الصبي فى مهده ، ونعلم — وهو من جليل العلم — أن بكاءه يدلّ على خلاف ما يدُل عليه ضحكه ، وحمحمةُ الفرس عند رؤية المخلاة ، على خلاف ما يدل عليه حمحمته عند رؤية الحجر ، ودُعاء الهرة الهرّ خلاف دعائها لولدها ، وهذا كثير . .

* * *

والإنسان فصيح ، وإن عبّرَ عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية .

وليس العربى أسوأ فهماً لطَمْطَمَةِ الرومى ، من الرومى لبيان لسان العربى ، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح ، فإذا قالوا : فصيح وأعجم ، فهذا هو التأويل فى قولهم أعجم ، وإذا قالوا : العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون ، إنما يعنون أنه لا يتكلم بالعربية ، وأن العرب لا تفهم عنه .

* * *

---

(١) قصوده : جمع قصد .

ووجدنا الحكمة على ضربين :
شيء جُعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة،
وشيء جُعلَ حكمة ، وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ،
فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على
أنه حكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يَسْتدِل ،
والآخر دليل يَسْتدِل ، فكل مستدَل دليل ، وليس كل دَليل
مستدلاً فشارك كل حيوان ، سوى الإنسان ، جميع الجماد
في الدلالة ، وفي عدم الاستدلال . واجتمع للإنسان إن كان
دليلاً مستدلاً .

ثم جُعل للمستدل سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله ،
ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسمّوا ذلك بياناً .

* * *

وجعل البيان على أربعة أقسام : لفظ ، وخطّ ، وعقد[1] ،
وإشارة . وجُعل بيان الدليل الذى لا يستدلّ تمكينَه المستدِلُّ
من نفسه ، واقتيادَه كل من فكر فيه إلى معرفة ما استُخْزِن من
البرهان ، وحُشِي من الدلالة ، وأودع من عجيب الحكمة
فالأجسام الخرْس الصامتة ، ناطقة من جهة الدلالة ، ومعربة
من جهة صحة الشهادة . على أن الذى فيها من التدبير والحكمة ،

---

(١) العقد : الحساب دون اللفظ والخط ، وهو نوع من الحساب
يكون بأصابع اليدين .

مخبرٌ لمن استخبره ، وناطق لمن استنطقه ، كما خبـّر الهزال ، وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحسنُ النَّضرَة عن حسن الحال .

فوضوع الجسم ونصبته ، دليل على ما فيه وداعية إليه ، ومنبهة عليه . فالجماد الأبكم الأخرسُ من هذا الوجه ، قد شارك فى البيان الإنسان الحىّ الناطق . فمن جعل أقسام البيان خمسة ، فقد ذهب أيضاً مذهباً له جواز فى اللغة ، وشاهد فى العقل ، فهذا أحدُ قِسمَى الحكمة ، وأحدُ معنيَىْ ما استخزنها الله تعالى من الوديعة .

* * *

والقسمة الأخرى ما أودَع صدورَ صنوف سائر الحيوان ، من ضُروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات ، وسخّر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة . والأصوات الملحّنة ، والمخارج الشجية ، والأغانى المطربة .

قد يقال إن جميع أصواتها معدّلة ، وموزونة موقعة ، ثم الذى سهّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة ، مما ذلّله الله لمناقيرها وأكُفِّها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيراً منها من الحِسّ اللطيف ، والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف ، ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها ، وبمقدار قوى فطرتها ، من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء

والاقتضاب ، ما لا يقدرُ عليه حذاق رجال الرأى ، وفلاسفة علماء البشر . بيَـد ولاَ آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُـهم خصالاً وأتمهمُ خِلالاً ، لا من جهة الاقتضاب والارتجال ، ولا من جهة التعسُّف والاقتدار ، ولا من جهة التقدم فيه ، والتأنى فيه ، والتأتى له ، والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المعينة له ، فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ، الجامع القوى ، المتصرّف فى الوجوه ، المقدّم فى الأمور ، يعجز عن عفو كثير منها . وهو ينظر إلى ضروب ما يجىء منها . كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السرْفة ، وكما علم غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق ، ثم لم يوجب لهم العجزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك . إلا بما قوى عليه الهمجُ والخشاش وصغار الحشرات .

ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكاليف والتجربة ، وذا التأنى والمنافسة ، وصاحب الفهم والمسابقة . والمتبصرَ شأنَ العاقبة ، متى أحسنَ شيئاً كان كل شىء دونه فى الغموض عليه أسهل ، وجعلَ سائر الحيوان ، وإن كان يحسنُ أحدُها ما لا يحسنُ أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً ، لم يمكنهُ أن يحسنَ ما هو أقربُ منه فى الظن ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شىء من الحيوان اختارَ ذلك ، فأحسنتْ هذه الأجناسُ

بلا تعلم ، ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم ، فصار لا يحاوله ، إذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدُها ، إذ لا يؤمِّل اللحاقَ بها ، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين ، وتجاهَ أسماع المعتبرين ، ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاظ والازدجار ، وعلى التعرّفِ والتبيّن ، وعلى التوقف والتذكّر ، فجعلها مذكرة منبهة ، وجعل الفِطر تنشئ الخواطر ، وتَجُولُ بأهلها فى المذاهب .

ذلك الله رَبُّ العالمين : « فتَبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقين ».

العشق

كلُّ عشقٍ يسمّى حبًّا ، وليس كلُّ حبٍّ يسمّى عشقاً . لأن العشق اسمٌ لما فضَلَ عن المحبّة ، كما أن السرفَ اسمٌ لما جاوز الجود ، والبخلَ اسمٌ لما قصرَ عن الاقتصاد ، والجُبنَ اسمٌ لما فضَل عن شدّةِ الاحتراس ، والهوَجَ اسم لما فضَلَ عن الشجاعة . .

* * *

والعشق داء لا يملك دفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلا بالحمْية ، ولا يكاد ينتفع بالحمية مع ما يولد الأغذية ويزيد فى الطبائع بالازدياد فى الطعم ، ولو أمكن أحداً أن يحتمى من كل ضرر ، ويقف عن كل غذاء ، للزم ذلك

المتطبب فى آفات صحته ، ونحل جسمه ، وضوى لحمه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية فى الطيبات ، ولو ملك أيضاً صرف الأغذية ، واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيير الهواء ، ولا اختلاف الماء .

وأنا واصف لك العشق لتعرف حده :

هو داء يصيب الروح ، ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروحَ الضعف من البطش ، والوهن فى المرء ينهكه . وداء العشق وعمومه فى جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم ، وصعوبة دوائه يأتى من قبل اختلاف علله .

وإنه يتركب من وجوه شتى كالحمّى التى تعرض مركبة من البرد والبلغم فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دوائه ، زائداً فى داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وإبطاؤه فى الانحلال .

فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والإلف ، وله ابتداء فى المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوط فى التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الملال .

الحب

الحب اسم واقع على المعنى الذى رسم به لا يعتبر له غيره ، لأنه قد يقال المرء يحب الله ، وإن الله عزّ وجلّ يحب المؤمن .

وإن الرجل يحب ولده ، والولد يحب صديقه وبلده وقومه ، ويحب على أى جهة يريد ولا يسمّى ذلك عشقاً ، فنعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف إليه العلل الأخرى . . إلا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه الهوى فى الأديان والبلدان وسائر الأمور . . ولا يميل صاحبه عن حجته واختياره فيما يهوى . . ولذلك قيل : عين الهوى لا تصدّق . . وحبك الشىء يعمى ويصمّ . . يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم . وذلك أن العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة . . ثم إذا سئل عن حجته فى ذلك لم تقم له حجة . . ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقاً ، فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد . والصنف من اللباس والفرش والدواب فلم ير أحد منهم يسقم بدنه ولا يتلف روحه من حب ولده ولا بلده وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق . . وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق .

* * *

فاعلم أنه إذا أضيف إلى الحب والهوى المشاكلة — أعنى مشاكلة الطبيعة — أى حب الرجال النساء ، وحب النساء الرجال المركب فى جميع الفحول والإناث من الحيوان صار ذلك عشقاً صحيحاً ، وإن كان ذلك عشقاً من ذكر لذكر

فليس إلا مشتقاً من هذه الشهوة وإلا لم يسمّ عشقاً إذا فارقت الشهوة . . .

ثم لم يره ليكون مستحكماً عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الإلف ، وتغرسه المواظبة فى القلب ، فينبت كما تنبت الحبة فى الأرض حتى يستحكم ويشتدّ ويثمر وربما صار لها كالجذع السحوق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل ، فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تامًّا . . ثم صارت قلة العيان تزيد فيه ، وتوقد ناره ، والانقطاع يسعره ، حتى يدخل العقل ، وينهك البدن ، ويشتغل القلب عن كل نافعة . ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق ، والغالب على فكرته ، والخاطر فى كل حال على قلبه .

* * *

وإذا طال العهد واستمرّت الأيام نقص على الفرقة واضمحلّ على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها . . فكذلك الظفر بالمعشوق يسرع فى حلّ عشقه . . والعلة فى ذلك أن بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب فى الرقة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقوة الشهوة وضعفها ، فما يظهر المعشوق عشقه إلا عداه بدائه ، ونكت فى صدره ،

وشغف فؤاده . . وذلك من المشاكلة وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارب الأرواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه مَن لا تَثاؤب به فيفعل مثل فعله قسراً من الطبيعة ، وقلما يكون عشق بين اثنين يستويان فيه إلا عن مناسبة بينهما فى الشبه : فى الخلق والخلق ، وفى الظرف ، أو فى الهوى ، أو الطباع . ولذلك ما ترى الحسَن يعشق القبيح ، والقبيح يعشق الحسَن ، ويختار المختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهم الغلط عليه لكنه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب .

المجدولة بين :

المرأة الممشوقة والمرأة السمينة

ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة .

والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولابدّ من جودة القدّ وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر . ولابدّ أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة .

وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة العصب وقلة الاسترخاء وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول .

ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران .

والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة فى المجدولة أعمّ ، وهى بهذا المعنى أعرف ، وهى بهذا المعنى تحبب على السمان الضخام وعلى الممشوقات والقضاف ، كما تحبب هذه الأصناف على المجدولات .

وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كثيب .

رجلان لا يعشقان!

رجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب :

أحدهما : الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه .

وثانيهما : الملك الضخم الشأن ، لأن فى الرياسة الكبرى ، وفى جواز الأمر والنهى ، وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق .

الحب بين الخير والشر

ولما رأينا الحب من أكبر أسباب الشر ، اجتنبنا أن نذكر أبواب السبب الجالب للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب للشر ، وحتى نذكر أصولهما وعللهما الداعية إليهما والموجبة لكونهما ، فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه والعاشق بطلبه ، ووجدنا شقوة الطالب المكدى وغمه فى وزن سعادة الطالب المنجح وسروره ، ووجدنا العشق كلما كان أرسخ ، وصاحبه به أكلف فإن موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

فإن زعم زاعم أن موقع لذة الظفر بالعدو المرصد أحسن

من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته ، قلنا : إنا قد رأينا الكرام والحلماء وأهل السؤدد والعظماء ربما جادوا بفضلهم من لذة شفاءَ الغيظ ، ويعدّون ذلك زيادة فى نبل النفس وبعد الهمة وعلو القدر ، ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق ، وبالثّمين من العروض ، وربما خرج من جميع ماله ، وآثر طيب الذكر على الغنى واليسر ، ولم نر نفس العاشق تسخو بمعشوقه ، ولا يجود لشقيق نفسه ، ولا لوالد ولا لولد بار ، ولا لذى نعمة سابغة يخاف سلبها ، وصرف إحسانه عنه بسببها ، ولم نر الرجال يهبون للرجال إلا ما لا بال له فى جنب ما يهبون للنساء . حتى كان العطر والصبغ والخضاب والكحل والنتف والقصّ والتحذيف والحلق وتجويد الثياب وتنظيفها والقيام عليها وتعهدها مما لم يتكلفوه إلا لهن . ولم يتقدموا فيه إلا من أجلهن ، وحتى كأن الحيطان الرفيعة والأبوب الوثيقة والستور الكثيفة والخصيان والظؤورة والحشوة والحواضن لم تتخذ إلا للصون لهن ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن .

* * *

لم نجد أحداً من الناس عشق والديه ولا ولده ، ولا من عشق مراكبه ومنزله ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام .

قال الله تعالى: « زيّنَ للناس حُبُّ الشّهواتِ مِنَ

النِّساءِ والبَنينَ والقناطيرِ المقنطرَةِ من الذهب والفضةِ والخيل المسوَّمةِ والأنعام والحرثِ » فقد دلّ تبارك وتعالى على جملة أصنافَ ما خولهم من كرامته ومنّ عليهم من نعمته ، ولم نر الناس وجدوا بشيء من هذه الأشياء وجدهم بالنساء ، ولقد قدم ذكرهن فى هذه الآية على قدر تقدمهن فى قلوبهم .

مكانة الزوجات من الأزواج

ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يُستحلف بالله الذى لا شيءَ أعظم منه ، وبالمشى إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعتق رفيقه فيسهل عليه ولا يأنف منه .

فإن استحلف بطلاق امرأته تربّد وجهه ، وطار الغضب فى دماغه ، ويمنع ويعصى ويغضب ويأبى وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب ، وليس ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات فى صدور الأزواج .

الدفاع عن النساء

ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر .

ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشدّ الزراية ، ويحتقرونهن أشدّ الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن .

وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال . فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجلد وقوة المُنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه فى هذ الكتاب[1] .

ويقول : ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة فى جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغى لنا أن نقصر فى حقوق المرأة ، وليس ينبغى لمن عظّم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذ أعظم فإن هذه أرحم .

* * *

والمرأة أيضاً أرفع حالاً من الرجل فى أمور منها : أنها التى تُخطب وتراد وتُعشق وتُطلب .

وهى التى تُفدى وتُحمى . قال عنبسة بن سعيد للحجاج

---

(١) يشير إلى كتابه « فى النساء »

ابن يوسف : أيفدى الأمير أهله ؟

قال : والله إن تعدونني إلا شيطاناً ، والله لربما رأيتني أقبّل رجل إحداهن .

غناء المرأة وغناء الرجل

الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن ، والغناء الشهى من الوجه الشهى والبدن الشهى أشهى . . وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة .

وكم بين أن تفدى إذ شاع فيك الطرب مملوكاك وبين أن تفدى أمتك ؟

وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبّله ، وبين أن تسمعه من فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه !

وعلى أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد : فأيما أحسن وأملح وأشهى وأغنج !

أن يغنيك فحل ، ملتف اللحية ، كثّ العارضين أو شيخ متخلع الأسنان ، مغضّنُ الوجه ، ثم يغنيك إذا هو غنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيتُ زُهَيْراً تحتَ كلكل خالــد
فأقبلت أسعى كالعَجُول أبــادرُ

أم تغنّيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة بشعر عكاشة ابن محصن :

من كفّ جارية كأنّ بنانها
من فضّة قد طُرّقتْ عُنّابا
وكأن يُمناها إذ نطقتْ به
ألقتْ على يدها الشمال حِسابا

* * *

فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنّى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب .

كتب الزنادقة

. . والذى يدلّ على ما قلنا : أنه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر . ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريفُ صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نِحلْة ، وجُلّ ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافُدُ العفاريت ،

وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود السنخ ، والإخبار عن شقلون ، وعن الهامة والهمامة ، وكلّه هذرٌ ، وعيٌّ وخرافة، وسخرية وتكذّب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثاً مونقاً ، ولا تدبيرَ معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأىُّ كتاب أجهلُ ، وأى تدبير أفسد من كتابٍ يوجب على الناس الإطاعة ، والبخوع بالديانة لا على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاحُ معاش ولا تصحيحِ دين ! ؟ والناس لا يحبون إلا ديناً أو دُنيا : فأما الدنيا فإقامةُ سوقها وإحضار نفعها . . وأما الدين فأقل ما يُطمعٍ في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصورّ في صورة مغلطة ، ويموه تمويه الدينار البهرَج ، فليس إنفاقهم عليها من حيثُ ظننت ، وكلّ دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً ، يحتاج من الترقيع والتمويه ، ومن الاحتشاد له والتغليط فيه إلى أكثر . وقد علمنا أن النصرانية أشدّ انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيّدهم في توكيده واحتفالهم في إظهار تعليمه .

اختلاف طبائع الناس .

اعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس او لم يكونوا مسخّرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين

فى الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة .

وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة والبوار والتواء .

ولو لم يكونوا مسخرّين بالأسباب ، مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة .

ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم .

فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه، أو سوء حذق ، أو خرقاً قال له : يا حجام .

والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك .

ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة .

ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلا ، وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ، وواحداً غنيًّا وآخر فقيراً، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون، وبالطاعة يسعدون . ففرّق بينهم ليجمعهم ، وأحبّ أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع ، وأتقن ما دبّر .

لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ،

ولو رغبوا بأجمعهم عن كدّ البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش ، فسخرّهم على غير إكراه، ورغبهم من غير دعاء .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها .

ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تمّ بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة . وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حوّلت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهل إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهمّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع .

وقد قيل عمّر الله البلدان بحب الأوطان .

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم .

وقال معاوية فى قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من الشام منزلاً خصباً ، وفرض لهم فى شئون العطاء : يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم .

وقال الله جلّ وعز : « ولو أنَّا كَتَبْنا عَلَيهم أن اقتلوا أنْفُسَكم أو اخْرُجوا مِن دِيارِكم مَا فعلوهُ إلاّ قليلٌ مِنهم» . ففرض الضّن بالأوطان إلى الضنّ بمهج النفوس .

وليس على ظهرها إنسان إلا وهو معجب بعقله لا يسرّه ، أن له بجميع ما له ما لغيره .

واولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذابوا حسداً ، ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد فى شىء فهو يرى أنه محسود فى شىء .

ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسماً واحداً ، وكنية واحدة ، فقد صاروا كما ترى ، مع اختيار الأشياء المختلفة ، إلى الأسماء القبيحة ، والألقاب السمجة ، والأسماء مبذولة ، والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق مخلاة ، ولكنها مطلقة فى الظاهر ، متّسمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبرّه الحكيم من ذلك ولا بالمصلحة فيه .

فسبحان منْ حبّب إلى واحد أن يسمّيَ ابنه محمداً ، وحبّبَ إلى آخر أن يسميه شيطاناً ، وحبّب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحبّب إلى آخر أن يسمّيه حماراً ، لأن الناس لو لم يخالف بين عللهم فى اختيار الأسماء ، وجاز أن يجتمعوا على شىء واحد كان فى ذلك بطلان العلامات وفساد المعاملات .

وأنت إذا رأيت ألوانهم وشمائلهم واختلاف صورهم ، وسمعت لغاتهم ونغمهم — علمت أن طبائعهم ، وعللهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة .

وبعض الناس وإن كانوا مسخّرين للحياكة فليس بمسخّر

للفسق والخيانة والأحكام والصدق والأمانة .

وقد يسخّر الملك لقوم بأسباب قديمة وأسباب حديثة فلا يزال ذلك الملك مقصوراً عليهم ما دامت تلك الأسباب قائمة ، فليس إذا كانوا للملك مسخّرين ، وكان الناس لم مسخّرين بالجبرية والنخوة والفظاظة والقسوة ، ولطول الا حتجاب والاستتار وسوء اللقاء والتضييع ، وقد يكون الإنسان مسخراً لأمر ومخيّراً فى آخر ، ولولا الأمر والنهى لجاز التسخير فى دقيق الأمور وجليلها ، وخفيّها وظاهرها، لأن بنى الإنسان إنما سخروا له إرادة العائدة عليهم ولم يسخروا للمعصية ، كما لم يسخروا للمفسدة . وقد تستوى الأسباب فى مواضع وتتفاوت فى مواضع ، كل ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ومراشد الدين .

ألا ترى أن أمة قد اجتمعت على أن عيسى عليه السلام هو الله ، وأمة قد اجتمعت على أنه ابن الله ، وأمة اجتمعت على أن الآلهة ثلاثة : عيسى أحدها ، ومنهم مَنْ يتذبذب ، ومنهم مَنْ يتدهر ، ومنهم مَن يتحول نسطوريًّا بعد أن كان يعقوبيًّا ، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانيًّا !

ولست واجداً هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها وكثرة تنقلها ، انتقلت مرة واختلفت مرة متعمدة أو ناسية فى يوم واحد فجعلته وهو الجمعة يوم السبت ، ولم تخطب فى يوم جمعة يوم خميس ، ولا غلطت فى كانون الأول فجعلته كانون الآخر

ولا بين الصوم والإفطار ، لأن الباب الأول فى باب الإمكان وتعديل الأسباب والامتحان . والباب الثانى داخل فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرح الامتحان.

وقد زعم ناس من الجهال ، ونفر من الشكاك ممن يزعم أن الشك واجب فى كل شيء إلا فى العيان أن أهل المنصورة وافوا مصلاهم يوم خميس على أنه يوم جمعة فى زمن منصورى ، وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاهم يوم الجمعة على أنه يوم خميس فى زمن أبى جعفر ، فبعث إليهم وقوّمهم . وهذا لا يجوز ، ولا يمكن فى أهل الأمصار . ولا فى العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة فى الجمع والجلوس عن الأسواق . . ومن بين معلم كتاب لا يصرف غلمانه إلا فى الجمع . . ومن بين معنى بالجمع يتلاقى هناك مع المعارف والإخوان والجلساء ، وبين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة ورغبةً فى الثواب ، ومن رجل عليه موعد ينتظره ، ومن صيرفى يصرف ذلك اليوم سفاتجه وكتب أصحابه ، ومن جندى . . فهو يعرف بذلك نوبته ، وبعض كالسؤال والمساكين والقصاص الذين يمدّون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة والفائدة، وفى أمور كثيرة وأسباب مشهورة . ولو جاز ذلك فى أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأيام لكان فى الشهور

أجوز ، ولو جاز ذلك فى الشهور لكان فى السنين أجوز ، وفى ذلك فساد الحج والصوم والصلاة والزكاة والأعياد . ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ، والخطباء على خطبة واحدة ، والكتاب على رسالة واحدة ، بل جميع الناس على لفظة واحدة ، وإنما نزلت لك حالات الناس وخبرتك عن طبائعهم ، وفسرت لك عللهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد على غير التشاعر فيكون باطلا .

وسأبين لك موضع اختلافهم واتفاقهم ، وأنه لم يخالف بينهم فى بعض الوجوه إلا إرهاصاً لمصلحتهم واتصح أخبارهم .

ألا ترى أن أحداً لم يبع قط سلعه بدرهم إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خير له من سلعته ، ولم يشتر أحد قط سلعة بدرهم إلا وهو يرى أن تلك السلعة خير له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ما اتفق بينهما شراء أبداً ولا بيع أبداً . وفى هذا جميع المفسدة وغاية الهلكة ، فسبحان الذى حبب إلينا ما فى أيدى غيرنا وحبب إلى غيرنا ما فى أيدينا ليقع التبايع ، وإذا وقع التبايع وقع الترابح ، وإذا وقع الترابح وقع التعايش .

ويدلك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم أنك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والرطب فلا تجد يدين تلتقيان

على رطبة بعينها ، وكل واحد من الجميع يرى ما حواه الطبق غير أن شهوته وقعت على واحدة غير التى آثرها صاحبه ، ولربما سبق الرجل إلى الواحدة وقد كان صاحبه يريدها فى نفسه غير أن ذلك لا يكون إلا فى الفرط ، ولو كانت شهواتهم ودواعيهم تتفق على واحدة بعينها لكان ذلك فى التمانع والتجاذب والمبادرة وسوء المخالطة والمؤاكلة .

وكذلك هو فى شهوة النساء والإماء والمراكب والكساء ، وهذا كثير والعلم به قليل ، وبأقل مما قلنا يعرف العاقل صواب مذهبنا .

والله تعالى نسأل التوفيق وهو الذى خالف بين طبائعهم وأسبابهم حتى لا يتفق على تخرص خبر واحد . لأن فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الأخبار فساد أمورهم وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أخبارهم فساد متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم ، وبطلان المعرفة بأنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ووعدهم ووعيدهم ، وأمرهم ونهيهم ، وزجرهم ورغبتهم وحدودهم وقصاصهم الذى هو حياتهم ، والذى يعدّل طبائعهم ويسوّى أخلاقهم ويقوى أسبابهم ، والذى به يتمانعون من تواثب السباع وقلة احتراس البهائم وإضاعة الأعمار ، وبه تكثر خواطرهم وتفكيرهم وتحسن معرفتهم .

امتزاج الخير بالشر

اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها ، امتزاجُ الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكروه بالسارّ ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة .

ولو كان الشرّ صِرفاً هلك الخلق، أو كان الخير مَحْضاً سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالم تثبّتٌ وتوقّفٌ . وتعلّم . ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبيّن ، ولا دفع مضرة ، ولا اجتلاب منفعة ولا صبرٌ على مكروه ، ولا شكر على محبوب ، ولا تفاضلٌ في بيان ، ولا تنافس على درجة ، وبطلت فرحة الظفر وعزّ الغلبة ، ولم يكن على ظهرها محقٌّ يجد عزّ الحق ، ومبطلٌ يجد ذلة الباطل ، وموقن يجد برْد اليقين ، وشاكٌّ يجد نقصَ الحيرة وكربَ الوجوم ، ولم تكن للنفوس آمال ، ولم تتشعبها الأطماع .

ومن لم يعرف كيف الطمعُ لم يعرف اليأس، ومنْ جَهِل اليأسَ جهلَ الأمن ، وعادت الحالة من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء ، إلى حال السبُع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة ، وإلى حال النجوم فى السّخرة ، فإنها أنقص من حال البهائم فى الرّتعة .

ومَنْ هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج ، أو برجاً من البروج ، أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرّ بأسرها ، أو مكيالاً من الماء . أو مقداراً من الهواء ؟

وكل شيء فى العالم فإنما هو للإنسان ولكل مختبر ومختار ، ولأهل العقول والاستطاعة ، ولأهل التبين والروية .

وأين تقعُ لذّة البهيمة بالعلوفة، ولذة السبع باطع الدم وأكل اللحم – من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع ؟

وأين ذلك من سرور السؤدد ومن عز الرياسة ؟

وأين ذلك من حال النّبوة والخلافة، ومن عزّهما وساطع نورهما ؟

وأين تقع لذّة دركْ الحواس الذى هو ملاقاة المطعم والمشرب ، وملاقاة الصوت المطرب واللون المونق ، والملمسة اللينة ، من السرور بنفاذ الأمر والنهى ، وبجواز التوقيع ، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجة ؟ !

ولو استوت الأمور بطل التمييز ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مثوبة . ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرة التوكل على الله تعالى، واليقين بأنه الوزَرُ والحافظ ، والكالئ والدافع ، وإن الذى يحاسبك أجودُ الأجودين ، وأرحم الراحمين . وإنه هو الذى يقبلُ اليسيرَ ويهبُ الكثير ، ولا يهلك عليه إلا هالك ، ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهلُ بعواقب الأمور ،

لبطل النظر ، وما يشحذ عليه ، وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ولعدِمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها .

فسبحان من جعل منافعها نعمةً ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسمها بين مُلذّ ومؤلم ، وبين مؤنس وموحش ، وبين صغير حقير وجليل كبير ، وبين عدوّ يرصُدُك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مُسالم يَمْنَعُك ، وبين معين يعضُدك ، وجعل فى الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تتمّ النعمة ، وفى بطلان واحدٍ منها بُطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً .

فإن الجميع إنما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحد ، وواحدٌ ضُمّ إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كلّ جثة فمن أجزاء ، فإذا جوّزت رفعَ واحد والآخرُ مثلُه فى الوزن وله مثلُ علته وحظهِ ونصيبه ، فإذا جوّزَت رفع الجميعِ ، لأنه ليس الأولُ بأحقّ من الثانى فى الوقت الذى رجوتَ فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك والثالث والرابع ، حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع ، كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيّدة .

ألا ترى أن الجبلَ ليس بأدلّ على الله تعالى من الحصاة .

وليس الطاووسُ المستحسنُ بأدلّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح .

والنار والثلج وإن اختلفا فى جهة البرودة والسخونة ،

فإنهما لم يختلفا فى جهة البرهان والدلالة .

وأظنّك ممن يرى أن الطاووسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب ، وأن التَّدْرُجَ أعز على الله تعالى من الحدّأة ، وأن الغزال أحبّ إلى الله تعالى من الذئب ، فإنما هذه أمورٌ فرقها الله تعالى فى عيون الناس ، وميّزها فى طبائع العباد ، فجعل بعضَها بهم أقرب شبهاً ، وجعل بعضها إنسيّاً ، وجعل بعضها وحشيّاً ، وبعضها عاديًّا ، وبعضها قاتلاً ، وكذلك الدرةَ والخرزة والتمرة والجمرة ، فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل .

غرور الإنسان

وليس فى الأرض إنسانٌ إلا وهو يطرّب من صوت نفسه، ويعتريه الغَلَطُ فى شعره وفى ولده .

إلا أن الناسَ فى ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم الغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم مَنْ يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسنَ حاله ما لم يُمْتَحَنْ بالكشف. ولذلك احتاج العاقل فى العجب بولده ، وفى استحسان كتبه وشعره ، من التحفظ والتوقّى ، ومن إعادة النظر والتّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه فى سائر ذلك .

حبّ الرئيس لقومه

متى أحب السيّدُ الجامع، والرئيس الكامل قومه أشدّ الحب، وحاطهم على حسب حبه لهم كان بُغْضُ أعدائهم له على حسبَ حبِّ قومه له، هذا إذا لم يتوثب إليه، ولم يعترض عليه من بني عمّه وإخوته منْ قد أطمعتْه الحال باللحاق به، وحَسَدُ الأقارب أشدّ، وعداوتهم على حسب حسدهم.

وقد قال الأولون: رضا الناس شيء لا ينال

وقد قيل لبعض العرب: مَنِ السيّدُ فيكم؟ قال الذى إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه.

وقد قال الأول: بَغْضاء السُّوَق[1] موصولة بالملوك والسادة. وتجرى فى الحاشية مجرى الملوك.

ضع نفسك حيث هى

وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بَدِيًّا إلى طبيعة ثم إلى معرفة ثم إلى إنصاف. وأول ما ينبغي أن يبتدئ به صاحبَ الإنصاف أمرَه ألا يعطيَ نفسه فوق حقها، وألا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما:

---

(١) السوق: جمع سوقة، والسوقة: الرعية.

أحدهما « تُهمة الإلف » ، والآخر « تُهمة السّابق إلى القلب » ، والله الموفق .

الشك واليقين

اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له .

وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلّماً . فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّفُ التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.

ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقاتٌ فى القوة والضعف .

ولما قال أبو الجهم للمكىّ : أنا لا أكاد أشك ! قال المكى : وأنا لا أكاد أوقن !

ففخر عليه المكىّ بالشك فى مواضع الشك . . كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين .

منهجه فى تأليف كتاب « الحيوان »

. . . وما أكثر ما يعرض فى وقت إكبابى على هذا الكتاب ، وإطالتى الكلام ، وإطنابى فى القول . . بيت ابن هَرْمة حيث يقول :

إن الحديثَ تعزّ القومَ خلوتُه
حتى يلجّ بهم رعىٌ وإكثار

وقولهم فى المثل: « كل مُجْر فى الخلاء يُسَرّ[1] »

وأنا أعوذُ بالله أن أُغَرّ من نفسى ، عند غيبة خصمى ، وتصفح العلماء لكلامى ، فأنا أعلم أن فتنةَ اللسان والقلم ، أشدّ من فتنة النساء والحرص على المال .

وقد صادف هذا الكتابُ منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه .

أوّلُ ذلك: العلة الشديدة . والثانية : قلة الأعوان ، والثالثة : طول الكتاب ، والرابعة : أنى لو تكلّفت كتاباً فى طوله ، وعددَ ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كُتُب العَرَض والجوهر ، والطّفرة[2] ، والتولّد[3] ، والمداخلة[4] والغرائز[5] والتماس[6] — لكان أسهلَ وأقصرَ أياماً ، وأسرع فراغاً ،

---

(١) وأصله أن الرجل يجرى فرسه فى المكان الخالى لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه ، يضرب مثلا للرجل تكون فيه الخلة يحمدها من نفسه ، ولا يشعر بما فى النفس من الفضائل .

(٢) الطفرة : مسألة كلامية تنسب إلى إبراهيم النظام وهى قوله : إن المار على سطح الجسم يسير من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المار ، ولا مر عليها . ولا حل فيها .

(٣) التولد : مبحث كلامى . وذلك أنهم اختلفوا فى من رمى سهما فجرح به إنساناً ، أو غيره وفى حرق النار . وتبريد الثلج ، وسائر الآثار الظاهرة من =

لأنى كنت لا أفزع فيه إلى تلقّط الأشعار ، وتتبّع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال ، فإن وجدت فيه خللاً مع اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه — فلا تنكره ، بعد أن صورتُ لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى .

ولولا ما أرجو من عوْن الله على إتمامه ، إذ كنتُ لم ألتمسْ به إلا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريفَ تدبيره ، والذى أودع أصنافَ خلقه من أصناف حكمته — لما تعرّضتُ لهذا المكروه .

فإذا نظرت فى هذا الكتاب فانظرْ فيه نظر منْ يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهبُ مذاهبَ التعنّت ، ومذهبَ منْ إذا رأى خيراً كتمه ، وإذا رأى شرّاً أذاعه .

الجمادات . فقالت طائفة : ما تولد من ذلك إنسان أو حى ، فهو فعل الإنسان والحى . واختلفوا فيما تولد من غير حى . فقالت طائفة هو فعل الله . وقالت طائفة هو فعل الطبيعة . وقال آخرون : كل ذلك فعل الله .

(٤) المداخلة : مقالة كلامية لقوم زعموا أن الألوان والطعوم والروائح والأصوات والخواطر أجسام . وأن تلك الأجسام بزعمهم تتداخل فى حيز واحد .

(٥) الغرائز أى الطباع الموجودة فى الأشياء كالحر للنار والبرد للثلج والإسكار للخمر . أثبت ذلك قوم ونفاه آخرون من الأشاعرة .

(٦) والتماس . ويقال أيضاً المجاورة : باب من الكلام يبحث فى اتصال الأجسام بعضها ببعض كالماء باللبن والدقيق بالماء . والزيت بالخل .

من كلماته

« احذَرْ مَنْ تأمَنْ كأنك حَذِرٌ ممّن تخافُ » .

« إذا سمعتَ الرجلَ يقول : ما ترك الأولُ للآخر شيئاً ، فاعلم أنه ما يُريد أن يُفلح » .

« إن تهيأ لك فى الشاعر أن تبرّه وترضيه وإلا فاقتلهُ » .

« عقلُ المنشئ مشغول ، وعقل المتصفّح فارغ » .

« قال لرجل آذاه : أنت والله أحوجُ إلى هوانٍ من كريم إلى إكرام ، ومن علم إلى عمل ، ومن قدرة إلى عفْو ، ومن نِعمة إلى شكر » .

« ليس فى الأرض عملٌ أكدّ لأهله من سياسة العوام » .

« لا ترى مسجوناً ولا مضروباً عند السلطان إلا وهو يقول : إنى مظلوم » .

« ليس فى الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم ، إلا كل واحد منهما يدّعى عدم الإنصاف والظلم على صاحبه » .

« إنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

« اللهمَّ جَنِّبنا فُضولَ القول ، والثقةُ بما عندنا ، ولا تجعلنا من المتكلفين » .

« لاينبغى لمن قلَّ علمه أن يدَع تعليم مَنْ هو أقلُّ منه علماً » .

الخلال الأربع المذمومة

واعلم أن الحكماء لم تذم شيئاً ذمها أربع خلال :

١ ـ الكذب : فإنه جماع كل شرّ ، وقد قالوا : لم يكذب أحد قطّ إلا لصغر قدر نفسه عنده .

٢ ـ والغضب : فإنه لؤمٌ وسوء مقدرة ، وذلك أن الغضب ثمرةٌ لخلاف ما تهوى النفس ، فإن جاء الإنسان خلافُ ما يهوى ممّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حزناً ، وإن جاءه ذلك ممّن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة بالبسطة .

٣ ـ والجزعَ عند المصيبة التى لا ارتجاع لها ، فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع فى مثل هذا عذراً، لما يتعجّل من غم الجزع ، مع علمه بفوت المجزوع عليه ، وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن افترق فرعاهما ، وذموّا :

٤ ـ الحسد كذمّهم الجزع ، لما يتعجّل صاحبُه من ثقل الاغتمام وكلفة مقاساة الاهتمام من غير أن يكون عليه

فى ذلك شىء ، فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم ، وقال بعض الحكماء: الحسد خلقٌ دنىء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وزعموا أنه لم يعذر عاذر قطّ إلاّ لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم .

الخلال الأربع المحمودة

وبقدر ما ذمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حمدتْ أضدادها من الأخلاق ، فأكثرتْ فى تفصيلها الأقاويل ، وضربتْ فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور فى الدنيا والدين ، فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسك ، وحكّمها فى أمرك ، تفز بالراحة فى العاجل ، والكرامة فى الأجل .

١ ــ والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنم فى العاقبة .

٢ ــ والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عمّنْ هو دونك .

٣ ــ والصدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرك .

٤ ــ والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .

فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نسب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومَنْ عُرف بالوفاء استنامتْ إلى الثقة به الجماعات ، ومَنِ استعزّ بالصبر نال جسيمات الأمور .

فالصدق والوفاء توءمان .

والصبر والحلم توأمان

فهنّ تمام كل دين ، وصلاح كلّ دنيا ، وأضدادهنّ سببُ كل فرقة وأصل كل فساد .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

أكتوبر ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً